

حياة (صلاح الدين الأيوبي)
بالاستناد إلى كتابات بهاء الدين وعماد الدين

للمستشرق هاملتون الكسندر روسكين كب

ترجمه وقدم له
الأستاذ الدكتور
ناصر عبدالرزاق الملا جاسم


منتدى إقرأ الثقافي

حياة (صلاح الدين الأيوبي)
بالاستناد إلى كتابات بهاء الدين وعماد الدين

للمستشرق هاملتون الكسندر روسكين كب

ترجمه وقدم له

الأستاذ الدكتور
ناصر عبدالرزاق الملا جاسم
أستاذ الاستشراق والحروب الصليبية
كلية الآداب/ جامعة الموصل

الكتاب: حياة (صلاح الدين الأيوبي) بالاستناد إلى كتابات بهاء الدين وعماد الدين
المؤلف: المستشرق هاملتون الكسندر روسكين كب
المترجم: الأستاذ الدكتور ناصر عبدالرزاق الملا جاسم
الطبعة: الأولى/ ٢٠١٥- أربيل
تصميم: قوباد ياسين طه
رقم الايداع: (٤٥١) لسنة ٢٠١٥

الموقع الإلكتروني http://alhiwarmagazine.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست

تقديم

هذا هو كتاب مجلة (الحوار) الثاني، ويأتي في ميدان مغاير لكتابنا الأول، حيث نكون في حضرة التاريخ، ننصت إلى ما يقصه عن أحد عظماء الإنسانية، ورجالها الأفذاذ: القائد الكوردي المسلم (صلاح الدين الأيوبي)، الذي طافت شهرته الآفاق، وهام بشخصيته الغرب قبل الشرق.. الغرب، الذي حاربه (صلاح الدين)، وخاض معه حروبا طوالا، ملتزما بأخلاق الإسلام، وسماحته، فانبهر به أعداؤه، وسجل التاريخ مآثره بعناوين عريضة..

وها هو أحد أبناء الغرب: المستشرق الإنكليزي المعروف: السير (هاملتون جب)، يتخصص في الكتابة والبحث عن جوانب حياة هذا القائد العظيم، ويكتب أكثر من بحث وكتاب عنه، وكتابه الذي بين أيديكم: (حياة صلاح الدين الأيوبي، بالاستناد إلى كتابات بهاء الدين وعماد الدين)، هو عبارة عن سيرة شبه كاملة، لحياة (صلاح الدين)، موثقة بالاستناد إلى مصادر تاريخية قريبة من الأحداث، وقريبة إلى الشخصية الرئيسة في هذه الأحداث. ويكتسب هذا الكتاب أهميته من كونه، كما يقول مترجم الكتاب: الدكتور ناصر عبد الرزاق: أحد الوثائق التاريخية النادرة، التي تمثل "أوج تألق مؤرخ ومستشرق غربي مسيحي، في التفاعل مع حاكم شرقي مسلم، استرجع للإسلام أعز مكان في قلب كل مسيحي، وهو مدينة (القدس) الشريف، وحارب

الملك الإنكليزي (ريتشارد قلب الأسد)، أحد أعظم الشخصيات التاريخية، التي يعتزّ بها البريطانيون عبر تاريخهم، ممن ينتمي إليهم هذا المستشرق الشهير". وبذلك، فقد جمع المستشرق الإنكليزي (جب) بين الموضوعية، والدقة، والتعالي عن العواطف الذاتية.

إن مجلة (الحوار) لتعتز إذ تقدم لقرائها هذا السفر التاريخي الرائع، الذي يترجم إلى العربية للمرة الأولى، على يد أستاذ قدير، كانت أطروحته للماجستير تحت عنوان: (صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الإنكليزية والأمريكية)، فاجتمع بذلك لهذه الدراسة التي بين أيديكم علمان بارزان، من المختصين في هذا الميدان. وإننا لنأمل أن يكون نشر هذا العمل مساهمة في خدمة التاريخ، والحقيقة، والتقارب بين الشعوب، كما تمنى مترجم الكتاب..

سالم الحاج

رئيس تحرير مجلة (الحوار)

أربيل ٢٠١٥/٦/٤

مقدمة المترجم

صلاح الدين الأيوبي وواقعنا الإسلامي:

يعدّ (صلاح الدين) واحداً من اللحظات النادرة في التاريخ الإنساني والإسلامي والكُوردي، فقد قدّم أمثولة على مستوى الإنسانية، ودرساً ينبغي أن نقفَ أمامه لنتأملّه ملياً، لأنه يزخر بالعبر التي كُنّا بحاجةٍ إليها في كلّ زمن، ولكنّنا في هذا الزمن أحوج ما نكون إلى مثلها.

فعلى مستوى الإنسانية ارتبط اسم (صلاح الدين) بلحظة نادرة من تاريخ الإنسانية، تقاطع فيها الغرب والشرق في أرض فلسطين المقدسة، التي تقدسها جميع الأديان السماوية، وتكتب تاريخها بوصفه جزءاً من تاريخها. فضلاً عن ذلك، فإن تاريخ (صلاح الدين) هو في جانب منه تاريخ الملك الإنكليزي (ريتشارد قلب الأسد)، والملك الفرنسي (فيليب أغسطس)، والإمبراطور الألماني (فردريك بارباروسا)، ويتقاطع مع تاريخ الاحتلال الصليبي للأرض الإسلامية في بلاد الشام، وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الشرقية. والأهم أن هذا التاريخ قدّم للأوروبيين دروساً في السلوك الحضاري والرقي الإنساني، التي عجز الغربيون، منذ ذلك التاريخ، وحتى اليوم، أن يقدموا له نظيراً. والأمر المثير، أن من سجّل مآثر (صلاح الدين)

الخلقية السامية، هم الأوروبيون المعاصرون له أنفسهم، وبقيت تتردد أصداؤها على مرّ القرون.

والدرس الذي يقدّمه (صلاح الدين) للمسلمين، هو نجاحه الذي يكاد يكون نادراً، في تنفيذ المعادلة الصعبة في الجمع بين مسؤولية الحكم، والتطبيق الأنموذجي للسلوك الإسلامي القويم. فقد برهن (صلاح الدين)، بوصفه امتداداً للمدرسة الأخلاقية في الحكم، التي تجلّت في شخص سلفه وملهمه (نور الدين محمود)، والتي استمدت تراثها من سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وسيرة خلفائه الراشدين من بعده، بأن التحلي الحقيقي بالقيم الإسلامية، سيصنع الأنموذج الحقيقي للحاكم المسلم. هذا الأنموذج، هو ما ترك أثره العميق في مؤرخي عصره، والعصور التالية، عندما بهرتهم شخصيته وتجربته، وسعوا لنقلها للأجيال اللاحقة، لتكون حجة في إمكانية تحقيق المثال الإسلامي في الحكم.

أما الدرس الذي يقدّمه (صلاح الدين) للكورد – والذي هو هدف تقديم هذا النص، ونشره في هذا الوقت، وفي هذا المكان بالذات – فهو وضعه إياهم في لب التاريخ والحضارة الإسلامية، فلقد رسم لهم مشروعية الدخول، بكلّ ثقل، في نسيج التاريخ الإسلامي، والمساهمة في صنع هذا التاريخ. فـ(صلاح الدين) يقول للكُورد: إن هذا الشرق الإسلامي، في العراق وبلاد الشام ومصر والجزيرة وآسيا الصغرى واليمن، بلادكم التي حكمتموها يوماً ما، وهذه الثقافة العربية الإسلامية ثقافتكم، التي كنتم جزءاً لا يتجزّأ من فقهها وعلومها

وحضارتها، فلستم عنها غرباء، وإنما أنتم من لحمة وتراب هذه الأرض، ولا يمكن بحال فصم تاريخكم عن تاريخها، أو إبداعاتكم الحضارية عن إبداعاتها، فأنتم - كما برهن (صلاح الدين)، والأيوبيّون من بعده - تنتمون إلى هذه الأرض بكل مشروعية، انتماءً أصيلاً، وعطاؤكم العلميّ في العصور الإسلامية، هو عطاء الحضارة الإسلامية نفسها. لأجل ذلك يقول لنا (صلاح الدين): هذه أرضنا، وهذا عالمنا، فلا حاجة للانكفاء في حدود ضيقة، وهذه ثقافتنا الإسلامية الرحبة، التي ننتمي إليها جميعاً، والتي ساهمنا معاً في بنائها، فهي ليست ثقافة العرب أو الفرس أو الكُورد، أو غيرهم، فحسب، ولا هي ثقافة العراقيين أو الشاميين أو المصريين أو اليمنيين دون سواهم، وإنما هي ملك للجميع، وليس فيها من هو أصيل، ومن هو دخيل.. تلك هي رسالةُ (صلاح الدين)، وتلك هي رسالةُ الإسلام.

المستشرق هاملتون كب:

صاحب هذا النص: المستشرق البريطاني الشهير السير (هاملتون كب)، الذي ولد في (الإسكندرية) عام ١٨٩٥، وتوفي عام ١٩٧١، وحصد شهرة واسعة في صفوف الاستشراق العالمي. ومبعث شهرته عدة عوامل، من بينها: المناصب الرفيعة التي تقلّدها في حقل تخصصه، فقد شغل كرسي الدراسات العربية والإسلامية في (جامعة لندن)، مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٧، خلفاً للمستشرق الشهير (توماس أرنولد)، وبين عامي

١٩٣٨ و١٩٥٥ كان أستاذ كرسي وليم لود في (أوكسفورد)، وهو من أعرق المناصب العلمية الغربية، في مجال الدراسات العربية، ثم انتقل إلى (جامعة هارفارد) عام ١٩٥٥، ليكون من بين مؤسسي الاستشراق الأميركي الجديد، بعد الحرب العالمية الثانية. وكان للمستشرق (كب) مكانة مماثلة في البلاد العربية والإسلامية، فقد كان عضواً مؤسساً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية، وعضواً في المجمع العربي في دمشق، وعضواً في مجامع أخرى عربية وإسلامية.

وعبر مسيرة حياته تخرّج على يديه العديدُ من العلماء الغربيين والمسلمين، ممن ارتقوا إلى مراكز علمية مرموقة في بلادهم أو العالم. ومن بين الغربيين: تلميذته المستشرقة (آن لامبتون)، التي أصبحت أستاذة اللغة الفارسية في (جامعة لندن)، وتلميذه (بيكنكام)، رئيس الجمعية الآسيوية الملكية، وتلميذه من الأميركان (ستانفورد شو)، الذي أصبح أحد علماء الدراسات العثمانية. أما المسلمون، فأبرزهم: (مقبول أحمد)، الذي اختصّ بالجغرافية الإسلامية، وكتب عن (المسعودي). ومن العرب، يتصدّر من طلابه الأستاذ الدكتور (صالح أحمد العلي)، رئيس المجمع العلمي العراقي، و(محمد حسن الزيات)، مندوب مصر لدى الأمم المتحدة، و(محمد إسحاق الحسيني)، الشخصية السياسية والفكرية الفلسطينية الشهيرة.

إلاّ أن الجانب اللامع في شخصية المستشرق (كب)، هو رؤاه المتقدّمة في دراسة التاريخ والفكر والدين الإسلامي؛ فقد كانت له تصوراته، التي أغنت المنظور الغربي عن الإسلام، وقادته إلى وعي

أعمق، أكثر تفهماً وتعاطفاً، وأرصن رؤية. وقد تبلور جانب من هذا المنظور المتفرّد، بفعل سنوات طفولته الأولى، التي قضاها في (الإسكندرية)، كما سبق القول، ثم تتلمذهُ وتأثرهُ بالمستشرق (توماس أرنولد)، صاحب الرؤية المتعاطفة مع الإسلام، التي كانت تمثل في عصره انشقاقاً عن السياق الغربي – والبريطاني، على وجه التحديد – في دراسة الإسلام.

ويتلمّس المتتبع لمؤلفات المستشرق (كب) هذه النظرة المتعاطفة، سواء في تناوله للدين الإسلامي، في كتابيه: (المحمدية)، و(الاتجاهات الحديثة في الإسلام)، أو في فهمه للجغرافية الإسلامية، في دفاعه عن الرحالة الشهير (ابن بطوطة)، وتصديه لترجمة رحلته، أو في فهمه الرائد للفكر السياسي الإسلامي، في كتاباته عن (ابن خلدون) و(الماوردي)، التي أصبحت المحفز للفهم الجديد لهذا الفكر. لكن يبقى فهم المستشرق (كب) لـ(صلاح الدين)، مرحلة التألّق الأسمى بالنسبة لتناوله للتاريخ الإسلامي.

(صلاح الدين الأيوبي) و(هاملتون كب):

يعد هذا النص، الذي بين أيدينا، واحداً من الوثائق التاريخية النادرة، لأنه يمثل أوج تألق مؤرخ ومستشرق غربي مسيحي، في التفاعل مع حاكم شرقي مسلم، استرجع للإسلام أعز مكان في قلب كل مسيحي، وهو مدينة (القدس) الشريف، وحارب الملك الإنكليزي (ريتشارد قلب الأسد)، أحد أعظم الشخصيات التاريخية، التي يعتزّ

بهـا البريطـانيون عبـر تـاريخهم، ممـن ينتمـي إلـيهم هـذا المستشـرق الشـهير. لقـد نجـح هـذا المستشـرق فـي تجـاوز المحـددات الدينيـة والقوميـة والثقافيـة والزمنيـة، لكـي يقتـرب مـن شخصـية الحـاكم والبطـل المسـلم (صـلاح الـدين الأيـوبي)، بطريقةٍ ينـدر أن يفعلها كاتب غربـي، فيمـا يخـص شخصـية إسـلاميّة، ولـيس أي شخصـية شـرقية، وإنمـا شخصـية واجهـت الغـرب عسـكرياً، وانتصـرت علـى جيوشـه، لا بـل وانتزعت منه محور دينه: (القدس الشريف).

وصلة المستشرق (كب) ليست وليدة هذا النص، الذي نشر عام ١٩٧٣، أي بعد وفاته بعامين، وإنما ترجع إلى سني حياته المبكرة. فقد كان لدى (كب)، وهو يشرع بإعداد كتابه عن (صلاح الدين)، بعض المنطلقات والإرهاصات المسبقة. وإذا بحثنا عن جذور صلته بهذا البطل المسلم، سنراها ترجع إلى مرحلة مبكرة جداً من حياته، وهي مرحلة المدرسة الملكية العليا في (أدنبرة)، حيث تركت رواية (الطلسم)، للروائي الاسكتلندي الشهير (والتر سكوت) أثراً عميقاً في نفسه، وهو يدرسها كأحد المقرّرات المنهجية[١]. وهنا لا بُدّ من التنبيه إلى المكانة الرفيعة التي يحتلها (سكوت) في نفوس طلبة هذه المدرسة، بوصفه أشهر خريجيها[٢]. وقد رافق إعجاب (كب) بهذه

---

١ Albert Hourani, " Hamilton Gibb: The Vocation of an Orientalist" in A. Hourani, Europe and the Middle East (Oxford , Macmillan & co. ,١٩٨٠). p. ١٠٦

٢ Ibid , p. ١٠٦

الرواية أمداً طويلاً، إذ يذكر المؤرخ (ألبرت حوراني)، وهو صاحب أهم تناول لسيرة المستشرق (كب)، أن (كب) قد اعتاد، بعد نصف قرن من الزمن، على توصية طلبته بقراءتها، بوصفها عملاً رائعاً يمكنهم من فهم الكثير عن التاريخ الإسلامي[٣]. وتمثل هذه الرواية أوّل أثر أدبي بالإنكليزية ينصفُ -إلى حدٍّ بعيد- (صلاح الدين)، ويظهره نداً لخصمه الملك الإنكليزي (ريتشارد قلب الأسد)، سواء في الفروسية، أو في الهيبة الملكية[٤]، ويحدّد لنا ذلك، ولا شك، خيطاً مهماً من خيوط صورة (صلاح الدين) لدى (كب)[٥].

ثم تعمّق هذا الاتجاه عندما قرأ أوّل سيرة بالإنكليزية عن هذا البطل، وهي دراسة المستشرق (ستانلي لين بول) الموسومة: (صلاح الدين وسقوط مملكة القدس)، التي نشرها عام ١٨٩٨، وفيها يقترب المؤلف كثيراً من صورة (صلاح الدين) الفارس النبيل الشهم الورع الذي حارب الصليبيين بضراوة، وتمكّن من تحرير الأراضي المقدّسة، والتصدّي للحملة الصليبية الثالثة، وإفشالها[٦]. وعندما قام بترجمة كتاب (ابن القلانسي): (ذيل تاريخ دمشق)، في مطلع ثلاثينيات القرن

---

٣ Ibid , p. ١٠٦

٤ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، "صلاح الدين الأيوبي في القصص الرومانسية الفرنسية والإنكليزية"، مجلة مركز البحوث والوثائق/ جامعة قطر، ١٩٩٦، ع ٨، ص٢٨٣.

٥ P. M. Holt , "Saladin and His Admirers" BSOAS , ١٩٨٣ , Vol.٤٦ , p. ٢٣٧

٦ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الإنكليزية والأمريكية (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٩٢)، ص م.

الماضي، أصبح قريباً من تاريخ الحروب الصليبية، ومصادرها – كما سنرى– ثم قدّم في الخمسينيات عدداً من الأبحاث المعمقّة عن مصادر (صلاح الدين)، وجيوشه، وشخصيته، وسيرته، كانت بمثابة نقطة تحوّل مهمّة على صعيد الفهم الغربيّ لهذه الشخصية الشهيرة. ثم نشر هذا النص، الذي يقدّم فيه سيرة (صلاح الدين)، كاملاً، عام ١٩٧٣. وقد دفع هذا الأمر المؤرخ وتلميذ (كب): (ألبرت حوراني)، إلى القول: إن هذه السيرة هي حصيلة الأبحاث السابقة المشار إليها. في حين برهن مترجم هذا الكتاب، في عمل مستقل، أن هذه الأبحاث قد انبثقت عن السيرة المتكاملة لـ(صلاح الدين)، التي ألفت بالأصل في الأربعينيات[٧]، مستنداً إلى الأدلة الآتية:

١– شهادة طالبه: الأستاذ (صالح أحمد العلي)، الذي أفاد بأن (كب) قد أنجز كتاباً عن (صلاح الدين) في الأربعينيات، وبتكليف من عميد كلية (سانت جونز) في (أوكسفورد). وقد جاء ثمرة جهد وتركيز متواصلين، استغرقا نحو ستة أشهر، وبمعدل ثماني ساعاتٍ يومياً، اعتاد (كب) قضاءها في (المكتبة البودلية) في (أوكسفورد). لكن اللجنة العلمية في هيئة الدراسات الشرقية قد اعترضت على الكتاب، لكونه مثقلاً بالهوامش، ولم توص بطبعه حينذاك.

٢– إشارة (سيدني بينتر)، مؤلف القسم المخصص للحملة الصليبية الثالثة، في الكتاب الضخم الذي حررته (جامعة بنسلفانيا)، ابتداءً من

[٧] ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، المستشرق هاملتون كب: دراسة نقدية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٩)، ص١٨٨.

عام ١٩٥٥ بعنوان: (تاريخ الحروب الصليبية)، إلى وجود مخطوطة تتناول سيرة (صلاح الدين) بمجملها، بقلم (كب)، أفاد منها في بحثه[٨].

٣- إن دراسات (كب) عن مصادر (صلاح الدين)، ومآثره، وجيشه، التي نشرها في مقتبل الخمسينيات، كشفت عن دراية عميقة ومفصّلة بجوانب سيرة (صلاح الدين)، ومن المنطقي أن يلجأ (كب)، كما هو حاله دائماً، إلى تكوين رؤية عامة، ثم يغور في التفصيلات.

٤- نص (السيرة) نفسه يؤكّد هذه الحقيقة، فإذا أهملنا الصفحات الأولى، نرى (كب) يتجنّب استخدام أي مصدر أولي أو ثانوي نشر بعد الأربعينيات، وكانت الترجمة الإنكليزية لكتاب (وليم الصوري)، التي نشرت عام ١٩٤٣، أحدثها[٩].

ولتقييم معطيات (كب) عن (صلاح الدين)، لا بُدّ من تقسيمها إلى ثلاثة حقول، هي:

ا - (كب) ومصادر (صلاح الدين).

ب - (كب) وسيرة (صلاح الدين).

ج _ (كب) وشخصية (صلاح الدين).

---

٨ S. Painter "The Crusade of Richard I and Philip Augustus "in K. Setton (ed.) A History of the Crusades , Vol. II.(Madison , University of Wisconson Press: ١٩٦٩)

٩ Gibb, The Life , p. ١٥

أ – مصادر سيرة (صلاح الدين):

عندما كتب (كب) كتابه (الأدب العربي)، عام ١٩٢٦، عرّج على موضوع مصادر دراسة سيرة (صلاح الدين). ويتراءى للقارئ تأثره التام بأحكام سلفه المستشرق (لين بول)، ويمكن تحديد هذه المواقف بـ:

(أ) وضع كتاب (الكامل في التاريخ)، لـ(ابن الأثير)، في مكانة متميزة بين مصادر الموضوع، مع الإقرار الفعلي بتحامله على (صلاح الدين).

(ب) إلحاق كتاب (النوادر السلطانية)، للمؤرخ (ابن شداد)، بـ(ابن الأثير)، وجعلهما المصدرين الأساسَيْن عن حياة (صلاح الدين).

(ج) تجاهل كتابات (عماد الدين) الكاتب الأصفهاني، بوصفها أعمالاً أدبية، ترك أسلوب مؤلفها، المغرق بالصنعة اللفظية، أثراً سلبياً على قيمتها التاريخية[١٠].

لكن (كب) بدأ يعدل مواقفه تدريجياً من هذه المصادر، وجاءت أولى الخطوات عندما ترجم مقاطع من كتاب (ذيل تاريخ دمشق) لـ(ابن القلانسي) إلى الإنكليزية، كما أسلفنا. وقادته هذه الترجمة إلى خلاصةٍ جديدة، نشرها بعد ذلك بسنوات قلائل، في دراسته المهمّة: (المواد العربية عن المرحلة المبكرة من الحروب الصليبية)، تناول فيها دراسة العلاقة بين (ابن القلانسي) و(ابن الأثير). ومفادها قيام (ابن الأثير) بتحريف الروايات، التي ينقلها عن (ابن القلانسي) بطرقٍ ذكية،

---

١٠ S. Lane – Poole , Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem(London Heroes of the Nations , ١٨٩٨) , p. VII

مما أضعف قناعاته بموثوقيّة (ابن الأثير)، وقاده إلى ابتكار منهج جديد في دراسة المصادر العربية[١١].

وعندما شرع بكتابة كتابه عن (صلاح الدين)، الذي بين أيدينا، لجأ إلى تبني منهجه السابق في نقد المصادر العربية عن الحروب الصليبية، وتحليلها، وتوصّل إلى استنتاجٍ فحواه أن (ابن الأثير) قد لجأ إلى الحيل ذاتها، التي سبق أن استخدمها مع (ابن القلانسي)، وهو ينقل عن مصادر سيرة (صلاح الدين)، ومصدره هذه المرة (عماد الدين الأصفهاني) في كتابيه الشهيرين: (البرق الشامي)، و(الفتح القسي)، حيث أجرى عليها (ابن الأثير) تحويرات ذكيّة، وماكرة، في الوقت نفسه، بما أضاع صلتها بالأصل، وأعطى للنصوص معانٍ مغايرة تماماً[١٢]. وحدّد (كب) في هذه (السيرة) مواضع التحويرات، ثم أعاد جمعها، وعرضها بصورة لافتة للنظر، في بحثه: (المصادر العربية عن حياة صلاح الدين)، الذي نشره عام ١٩٥٠[١٣]، والذي يعد بحق

---

[١١] F.Gabreli," The Arabic Historiography of the Crusades" in B. Lewis (ed.)Historians of Middle East (London, SOAS, ١٩٦٢)p. ١٠٧

[١٢] Hamilton Gibb, The Life of Saladin,(Oxford , Clarendon, ١٩٧٣). p. ٣

[١٣] نشر هذا البحث في مجلة (المرآة)، التابعة لأكاديمية الدراسات الوسيطة الأمريكية عام ١٩٥٠. وقد اعتمدنا نص هذا البحث، والبحوث الأخرى، كما وردت في الكتاب الذي حرره تلميذه (يوسف ايش) ونشره عام ١٩٧٤، وترجمته العربية التي نشرت قبل ذلك بعام.
H. A.R. Gibb : Saladin, Studies in the Islamic History (ed.) Yusif Ibish(Beruit , Arabic Institute of studies and Publishing,١٩٧٤)

واحداً من أهمّ إنجازاته الأصيلة. وخلاصة البحث تتمثل في إنكاره للمكانة التي تمتع بها (ابن الأثير) لدى المؤرخين الذين جاءوا بعده، بوصفه مصدراً أساساً من مصادر سيرة (صلاح الدين)، وقصر أهميته في تعبيره عن العداء، وروح الفرقة، التي كان على (صلاح الدين) أن يكافحها في بناء صرح قوته السياسيّة والعسكريّة، وما تركته هذه الروح من آثارٍ معنوية استمرت في إعاقة جهاده العسير للحملة الصليبية الثالثة[١٤].

ولعلّ الذي مكّن (كب) من التوصّل إلى استنتاجه السابق، هو توظيفه الفَطِن لمصدر جديد بالغ الأهمية،لم يفطن إليه (لين بول)، ألا وهو كتاب (البرق الشامي) لـ(عماد الدين الأصفهاني)، وتحديداً الجزأين المتبقيين منه، والمحفوظين في (المكتبة البودلية) بـ(أوكسفورد)[١٥].

وأسهم هذا المصدر، إلى جانب بقية نصوص (عماد الدين) عن (صلاح الدين)، والمتوزعة بين كتابه (الفتح القسي)، والمقتطفات التي ضمها كتاب (الروضتين) للمؤرخ الدمشقي (أبو شامة) عن (البرق)، في بلورة الخلاصة الثانية، التي نقض فيها تصوّر المستشرق (لين بول)

---

[١٤] هاملتون جب، صلاح الدين: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة وتحرير، يوسف ايبش (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣)، ص٩٦.

[١٥] كتاب (البرق الشامي) أحد المصادر الأساسية عن حياة صلاح الدين، كتبه الكاتب عماد الدين الأصفهاني في سبعة أجزاء، لكنه فقد، ولم يعثر سوى على الجزأين الثالث والخامس، وقد تم تحقيق هذين الجزأين ونشرا في الأردن عن مؤسسة عبد الحميد شومان، بإشراف المرحوم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري.

السابق عن (عماد الدين الأصفهاني)، ومفادها: أن كتابات (الأصفهاني) يجب أن ترتقي إلى المحل الأول بين مصادر سيرة (صلاح الدين). أما أسلوبه المزوق، فهو أسلوب أبناء طبقته من كتاب الدواوين، وليس له من تأثير على الحقيقة التاريخية، أو دقة العبارات[١٦]، وإن روايته للأحداث تأتي على الدوام وافية وحافلة بالصدق والنزاهة، بالرغم من اهتمام (عماد الدين) البالغ بإبراز براعته اللغوية[١٧]. فضلاً عن ذلك، يؤكّد (كب) إيمانه بموثوقيته وجدارته، ويستدلّ على صدقه بمقارنة رواياته بروايات المصادر الأولية الصليبية، مثل: (وليم الصوري) و(أرنول)، أو بالمصادر العربية، مثل: (ابن شدّاد)[١٨]. ويدفعه تحمّسه لهذا المصدر لتخصيص دراسة مفصّلة عنه، غار فيها في أعماق البناء اللغوي لجزئي (البرق) المتبقيين، فضلاً عن تلخيصه لمحتوياته، وتصدّيه لترجمة مقتطفات عنه. وعاد فيها لتكرار آرائه السابقة بشأن موثوقيّة كتابات (عماد الدين)، وصدق مؤلفها، ونزاهته، وإخلاصه للحقيقة التاريخية[١٩]. ولعلّ أهمَّ خصائص هذا البحث، هو إبراز قدرة (كب) على التوغّل داخل عالم (عماد

---

[١٦] جب، صلاح الدين، ص٧٤.

[١٧] نفسه، ص١٨٣.

[١٨] نفسه، ص١٨٣ Gibb, The Life , p. ٣

[١٩] نشر هذا البحث عام ١٩٥٢ عن مجلة (جمعية المستشرقين الألمان)، بعنوان (البرق الشامي: تاريخ صلاح الدين، للكاتب عماد الدين الأصفهاني).

الدين) اللغوي الشائك الذي، أثار سخط المؤرخين، حتى المسلمين منهم، أمثال: (أبي شامة)[٢٠].

ولم يقف (كب) عند تعديل رؤى (لين بول) فحسب، بل عمد إلى توظيف مصادر جديدة، لم يولها سلفه عنايته، مع أنه كان على معرفة بها. وأهم هذه المصادر: الرسائل التي أنشأها نيابة عن (صلاح الدين)، وزيره وصديقه الحميم: (القاضي الفاضل). ويراها (كب)، من بعض الوجوه، أكبر مصادر (صلاح الدين) قيمة[٢١]. ومع تنبيهه إلى ضرورة الحذر في التعامل مع هذا المصدر، فهو يؤمن بأن هذه الرسائل "تعكس شيئاً على الأقل، من أهداف (صلاح الدين)، ومثله الحقيقية"[٢٢]. ونجد، على امتداد معالجته للسيرة، تأثيرات رسائل (الفاضل) عميقة في فهم (كب) لشخصية (صلاح الدين)، ولمواقفه من خصومه المسلمين[٢٣]، أو من الخلافة العباسية[٢٤]. بل إنه يتبنى، في كثير من الأحيان، وجهات النظر أو الحجج التي يقدّمها (صلاح الدين)[٢٥].

---

[٢٠] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق (دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧)، ص١٠.

[٢١] جب، صلاح الدين، ص١٨٣.

[٢٢] نفسه، ص١٨٣.

[٢٣] نفسه، ص١٣٥، ١٣٧، ١٤٩.

[٢٤] نفسه، ص١٣٩.

[٢٥] ولا سيما في تفسيره لدوافع صلاح الدين في الزحف إلى بلاد الشام، وكذلك في محاربته زنكيي الموصل، نفسه، ص١٢٣.

ويلتحق بهذه المجموعة مصدر خامس، أسقطه (لين بول) من اعتباره، هو المؤرخ (ابن أبي طي الحموي)، الذي فقدت جميع مؤلفاته، ولم يتبق عنه سوى مقتطفات لدى المؤرخين المتأخرين، كـ(أبي شامة) و(ابن الفرات) و(المقريزي). ويتنبه (كب) إلى أهمية هذا المصدر، ربما تحت تأثير دراسة رائدة نشرها المؤرخ الفرنسي (كلود كاهن) عنه عام ١٩٣٥[٢٦]، واستوقفه غنى رواياته بالتفاصيل التي تفتقدها المصادر الأخرى[٢٧]. لكنه يتنبه كذلك، وهنا تحت تأثير (أبي شامة) ولا شك[٢٨]، إلى دور الدوافع الشخصيّة في صياغة روايات هذا المؤرخ، وخاصة في تحامله على (نور الدين زنكي)، وفي إلقائه ظلالاً قاتمة على علاقته بنائبه في مصر (صلاح الدين الأيوبي)[٢٩].

ويصل (كب) إلى خلاصة نهائية تقوم على تقسيم مصادر سيرة (صلاح الدين) إلى مجموعتين: الأولى تضمّ (بهاء الدين ابن شدّاد) و(عماد الدين)، وهذه تمتلكُ القدرة على تسجيل الحقائق التاريخية بدقة[٣٠]. أمّا المجموعة الثانية، فتضمّ (ابن الأثير) و(ابن أبي طي)،

---

٢٦ Une Chronique Chiite au Temps des Croisades C. R. de' Acad . Inscrptionst et Belle letters ١٩٣٥

٢٧ جب، صلاح الدين، ص٧١.

٢٨ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١١٨.

٢٩ نفسه، ص١٢٤.

٣٠ ومن هنا كان اختيار كب عنواناً للسيرة التي بين أيدينا (حياة صلاح الدين بالاستناد إلى بهاء الدين وعماد الدين).

ويرى (كب) أن للدوافع الشخصية دورها في صياغة رواياتهما، مما يثير الشك حيال صدقها، أو موثوقيتها[٣١].

وهكذا تبنى (كب)، في النص الذي نقدّمه لسيرة (صلاح الدين)، خط مصادر المجموعة الأولى، منبهاً ومعلقاً -كلما دعت الضرورة- إلى تباين هذا الخط مع ما قدّمته مصادر المجموعة الثانية. وغالباً ما تحتل تعليقاته حيّزاً كبيراً من هوامش كتابه، التي ننبه القارئ إلى أن أهميتها في أغلب الأحيان تتفوّق على المتن، وهي تقدّم دروساً مهمّة للباحثين في هذا الحقل، وفي حقل النقد التاريخي بعمومه، ومن هنا جاء عنوان هذا النص: حياة (صلاح الدين)، بالاستناد إلى كتابات بهاء الدين وعماد الدين.

(كب) وسيرة (صلاح الدين):

يؤكّد (كب) في هذه السيرة، من جديد، أساسيات أسلوبه اللغويّ، وطرق تناوله لموضوعاته، فهو يلجأ إلى عاداته الثابتة في التكثيف والإيجاز، وتقديم الخلاصات، وعدم الإغراق في التفاصيل. وكذلك في حشو هوامشه بتعليقات متنوعة، ومستفيضة، تفوق في أحيان كثيرة المتن أهمية، وتنصرف بالدرجة الأُولى إلى تحليل العلاقة بين روايات المصادر الأولية. فاستقصاؤه للعلاقات بين النصوص والروايات، ودأبه

---

٣١ جب، صلاح الدين، ص٧٠-٧٢.

على المقارنة بينها، يكاد يكون من أبرز نواحي إنجازه، كما سلف القول.

يقدّم لنا (كب) – في هذا النص – عرضاً متسلسلاً للسيرة، دون أن يلجأ إلى تقسيم كتابه إلى فصول، أو عناوين جانبية[٣٢]. فيبدأ سيرته مع ولادة (صلاح الدين) في (تكريت)، ونشأته في (بعلبك)، والتحاقه بـ(نور الدين)، ومن ثم مشاركته عمّه في الحملات على (مصر)، ثم توليه الوزارة فيها للخليفة الفاطمي (العاضد)، والنيابة عن (نور الدين). ويمضي (كب) في روايته حتى وفاة (صلاح الدين)، واصفاً لحظاته الأخيرة بطريقة مؤثرة للغاية، نقلها عن (عبد اللطيف البغدادي) في كتابه (المشاهدة).

ومن جانب آخر، استطاع (كب) بناء مفهومه الخاص لسيرة (صلاح الدين)، فقد تحرّر، كما يقول مراجع كتابه، الأستاذ (ج . م . روجرز)، أستاذ التاريخ في (الجامعة الأمريكية) في (القاهرة): من النظرة الغربية التقليدية والمبسطة، التي نظرت إلى (صلاح الدين) من زاوية جهاده للصليبيين، وهي النظرة التي تبنّاها (لين بول)، عندما أفرد نحو نصف كتابه للحديث عن السنوات الخمس الأخيرة من سيرة (صلاح الدين)، أي سنوات جهاده الشامل[٣٣]. ونجد أن (كب) لم

---

٣٢ لجأ المترجم إلى وضع عناوين لفقرات الكتاب، لبيان الانتقال في عرض المستشرق كب حوادث سيرة صلاح الدين.

٣٣ J. M. Rogers, Review of Gibb's Life of Saladin "Engilsh Historical Review,١٩٧٤, Vol. ٨٩ ,p. ٦٥٧

ينسق وراء هذا الاتجاه، حيث يقدّم سيرة متوازنة في حجمها وتقسيماتها، إذ منح مرحلة بناء (صلاح الدين) لقوّته، بين عامي ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م و ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م مكانة كبيرة في كتابه، لكنه لم يبخس مرحلة الجهاد حقها من الاهتمام كذلك.

(كب) وشخصية (صلاح الدين):

قدّم (كب)، خلال استعراضه لسيرة (صلاح الدين)، رؤية فكرية متماسكة لشخصية (صلاح الدين)، استقى بعضها عن (لين بول)، ونجح في استكمال أطرافها الأخرى، انطلاقاً من تحليلاته للمصادر، وفهمه الشمولي للتاريخ الإسلامي. وهي رؤية تخطى فيها بمراحل كبيرة الاستشراق الغربي في فهمه الشخصية الإسلامية ككل، وشخصية (صلاح الدين) على وجه التحديد. ويمكن تتبع إرهاصات هذه الرؤية في مراجعته لكتاب المؤرخ الفرنسي(كروسيه): (تاريخ الحروب الصليبية)، وفيها إجمال لما سيفصله لاحقاً في معالجته للسيرة، وفي بحثه البالغ الأهمية: (مآثر صلاح الدين)، الذي نشر عام ١٩٥٢.

وتقوم رؤيته في مراجعته لكتاب (كروسيه)، على التمييز بين دوري (نور الدين) و(صلاح الدين) الجهاديين، فهو – مع إقراره بالصفات الخلقية الرفيعة للأول – بدا له أولاً وآخراً قائداً عسكرياً تركياً، ولد ليحكم في امتداد لحكم والده، ولكونه واعياً بالثورة الروحية المتصاعدة، فقد سعى لتوظيف هذه الثورة في إقامة وحدة إسلامية،

إلى جانب الوحدة السياسية، التي هو على رأسها[٣٤]. أما (صلاح الدين) – بنظر (كب) – فرجل ذو تكوين مختلف، فقد كان أصلاً نتاج هذه الثورة الروحية، وإنه عالج المهمّة التي ألقيت على كاهله، وهي التصدّي للصليبيين، وتحرير الأماكن المقدّسة، بروح المتصوف، والرجل الملهم بمثال أعلى، وإنه لم يكن لينجح في اجتياز هذا الامتحان العسير، لو لم يكن متسلّحاً بهذه الروح[٣٥].

وقد عمّق (كب) هذه الرؤية، وأعطاها أبعاداً أكثر وضوحاً، في بحثه: (مآثر)، كما أضاف إليها عناصر جديدة، استمدها من وحي دراسته لسيرة (صلاح الدين)، وسار فيها على خط التعاطف –الذي عهدناه لديه– إلى آخر الشوط[٣٦]، فكان بحثه هذا إنجازاً يندر أن يصدر عن كاتب غربي بحق شخصية إسلامية. وفيه يسعى للبحث في دواخل شخصية (صلاح الدين)، وحقيقة دوافعه، من خلال الإجابة عن تساؤل يطرحه، هو: هل ثمة خصائص منفردة تميّز شخصية (صلاح الدين) عن حكّام عصره، أم هو أحد أولئك القادة، الذين وظّفوا الشعارات والعواطف الدينية لتحقيق طموحاتهم وشهواتهم الشخصية؟[٣٧]. ويمضي (كب) للإجابة عن هذا السؤال، مستعيناً

---

[٣٤] Hamilton Gibb, "Review of Grousset's Histoire des Croisades", BSOS, ١٩٣٧, Vol.XI p. ٢٤٨–٩

[٣٥] Ibid , p. ٢٤٩

[٣٦] Clude Cahen Revue de Setton's A History of the Crusades" ,Oriens, ١٩٥٦, Vol X ,P.١٧٦

[٣٧] جب، صلاح الدين، ص١٧٩–١٨٠.

بمعطيات (لين بول)، وبرؤيته المشار إليها سابقاً، وبحصيلة تراكم فهمه لدور الإسلام في مجتمعات المنطقة وتاريخها، وأخيراً ببحثه المعمّق في سيرة (صلاح الدين)، ومصادرها. وخلاصة بحثه القول بأن دور (صلاح الدين) السياسي، وشخصيته، يكشف عن حالة بالغة التفرّد، في ضوء الوضع السياسي الذي كانت تعيشه بلاد الشام والجزيرة والعراق، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فالرجل لم يكن محارباً، أو حاكماً، سواء من حيث الميل أو التدريب[٣٨]. أي إنه، وهو الحاكم الذي استطاع بسط سلطانه على رقعة واسعة من العالم الإسلامي، ونجح في دحر الصليبيين، وتحرير الأماكن المقدّسة، لم يكن مخططاً عسكرياً بارعاً، أو إدارياً جيّداً [٣٩]، لكنه كان في المقابل، رجلاً ذا مزايا أخلاقية إسلامية حقيقية، ألهمته لتحقيق هدفٍ سام، وألهمت معه أتباعه، فنجح، كما يرى (كب)، في انتشال الإسلام من وهدة الانحطاط الأخلاقي السياسي، حين نادى بمثال أخلاقي أعلى. وبما أنه طبق هذا المثل على حياته الخاصة، وأعماله، فقد خلق حوله محفزاً ناجعا للوحدة، وإن لم يكتمل، في مواجهته التحدي غير المنتظر الذي ساقته الأقدار في طريقه[٤٠].

لقد كان هدف (صلاح الدين) الأسمى - كما رآه (كب) - هو "إعادة الكيان السياسي الإسلامي إلى سابق عهده، وإحياء هذا

---

٣٨ نفسه، ص١٨٩.

٣٩ نفسه، ص١٨٨-١٨٩.

٤٠ نفسه، ص٢٠١.

الكيان، في ظل إمبراطورية واحدة موحّدة، ليس تحت حكمه هو، وإنما بعودة الحكم إلى كنف الشرعيّة، تحت إشراف الخلافة العباسية، واعتبر نفسه مجرد قائد لجيوش العباسيين[٤١].

ويلعبُ بحث (كب) عن (الماوردي)، دوراً مهماً في تأطير علاقة (صلاح الدين) بالخلافة العباسية، وإيضاح طبيعة الثقل الذي كان يعطيه (صلاح الدين) لموافقتها على سياسته.

وتبقى هناك دراسة ثالثة لـ(كب) عن (صلاح الدين)، جديرة بالاهتمام، هي دراسته عن (جيوش صلاح الدين)[٤٢]، وهي متفرعة كالدراسات السابقة عن كتابه في السيرة. ويقدم (كب) هذه الدراسة تقنية بحث تختلف تماماً عن الدراسات السابقة، فهي دراسة توثيقيّة، هدفها دراسة البناء العسكري لدولة (صلاح الدين)، جاءت بأربعة أقسام، خصصت الأقسام الثلاثة الأولى لدراسة جيوش (صلاح الدين)، بينما ترك القسم الرابع للحديث عن العُدد. وقد استند (كب) بالدرجة الأساس إلى متجددات (يوميات) (القاضي الفاضل)، التي حفظها لنا (المقريزي) في كتابيه: (السلوك)، و(الخطط)[٤٣]. وإذا كان بحث (كب) عن "المصادر العربية لحياة (صلاح الدين)"، امتداداً لبحثه "ملاحظات عن المواد العربية عن الحملات الصليبية المبكرة"،

---

[٤١] نفسه، ص٢-١٩٣.

[٤٢] نشرت هذه الدراسة في مجلة (كراريس التاريخ العالمي)، الفرنسية، عام ١٩٥١، وقد نشرت كسابقتها ضمن كتاب (بولك وشو): دراسات في حضارة الإسلام)..

[٤٣] عن يوميات القاضي الفاضل، أو متجدداته، ينظر: علي نجم عيسى، رسائل القاضي الفاضل، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨.

فإن بحثه هذا هو امتداد إلى حد كبير للقسم الذي تناول فيه (كب) الجيوش الإسلامية، في مقدمته المهمة لكتاب (ابن القلانسي). وقد أشاد الباحثون بهذه الدراسة، إذ يرى (ستيفن همفريز) (المختص بالتاريخ الأيوبي) أنها قدمت حلولاً مرضية لقسم كبير من المشكلات التي تثيرها النصوص التاريخية[٤٤]. سيجد القارئ في النص الذي بين أيدينا عرضاً مكثفاً يتضمن المنطلق لكل تلك الآراء التي قدّمها في أبحاثه السابقة.

نقد المستشرق (كب)، والرؤية الانشقاقية لـ(صلاح الدين):

لقد أثارت رؤية (كب) عن مصادر، وسيرة، وشخصية (صلاح الدين)، ردود فعل متباينة بين مادح وقادح[٤٥]. إذ وجد بعض المستشرقين أن (كب) قد مضى أكثر مما ينبغي في التعاطف مع (صلاح الدين) المسلم. وكان أقسى ناقد لهذه الرؤية المستشرق اليهودي الأمريكي (اندرو اهرنكروتز)، الذي قدّم، في الكتاب الذي نشره عام ١٩٧٢ عن (صلاح الدين)، رؤية انشقاقية تماماً عن الموروث البريطاني، عن هذا البطل، الذي أسهم (سكوت) و(لين

---

٤٤ S. Humphryes , Review of Gibbs Saladin (ed) by J. Ibish "JNES, ١٩٧٧,Vol. ٣٦p. ٣٢٠

٤٥ لعل أول ناقد لكب في رؤيته هذه هو كلود كاهن، الذي رأى بأن كب قد بالغ في تصوير صلاح الدين محوراً للجهاد، مقارنة بعماد الدين زنكي وابنه نور الدين.

Cl .Cahen , "Revue .."p. ١٧٩

بول) و(كب) في بنائه وترصينه. ويمكننا أن نستعرض جانباً من نقده لـ(كب)، وفق التقسيمات التي عرضنا فيها لآرائه.

فعلى قدر تعلق الأمر بمصادر (صلاح الدين)، ناقض (اهرنكروتز) تماماً طروحات (كب)، وحاول أن يقدّم رؤية جديدة للمصادر، مفادها: أن قرب (عماد الدين) و(ابن شداد) و(القاضي الفاضل) من (صلاح الدين)، الذي كان برأي (كب) أساس موثوقيتهم، هو نفسه منطلق هجوم اهرنكروتز عليهم. فقد عدّهم أناساً متملّقين انتهازيين، بل وحتى مخادعين، زوروا التاريخ تمجيداً لـ(صلاح الدين)[٤٦]، مفضلاً عليهم (ابن الأثير)، متجاهلاً تحليل (كب) الدقيق، الذي برهن فيه على عدم موثوقيته، وقلة أمانته، فيما يتعلّق بحياة (صلاح الدين).

أما عرض (اهرنكروتز) للسيرة، فيخالفه فيه، عندما يولي المرحلة المصرية من حياة (صلاح الدين) عناية شديدة، فيخصها بنحو نصف كتابه، مع أنها لا تغطي إلاّ خمس من سنوات من حياته، كان فيها وزيراً للخليفة الفاطمي (العاضد)، ونائباً لـ(نور الدين). وتجاهل في المقابل إعطاء مرحلة الجهاد الشامل ما تستحقه من اهتمام، إذ جاءت روايته لها ضعيفة ومهزوزة، فضلاً عن إسقاطه لبعض عناصرها الأساسية، وتحريفه للبعض الآخر[٤٧].

---

٤٦ G. Scanlon, p. ٢٧٧

٤٧ Steven Runciman "Review of Ehrenkreutz's Saladin" , JRAS, ١٩٧٣, p. ٦٨

والمقولة الأساسية التي عالج (اهرنكروتز) في ضوئها سيرة (صلاح الدين)، تتمثل في عد حكمه كارثياً على (مصر)، فقد كان –كما زعم– السبب الرئيس لانهيار اقتصادها، وذلك باستنزافه مواردها في محاربته أعدائه، من المسلمين والصليبيين[٤٨]. زد على ذلك أن استعانة (صلاح الدين) بالموارد المصرية في الجهاد، قد لفتت أنظار الصليبيين إليها، فأصبحت هدف حملاتهم التالية[٤٩]. وتأسيساً على ما تقدم، يأتي تصويره لشخصية (صلاح الدين) مناقضاً تماماً لطروحات (كب). وحسبنا أن تقتطف عنه العبارة الآتية، ليتجلّى لنا موقفه بوضوح:

"يجب أن نعزو أغلب إنجازات (صلاح الدين) التاريخية البارزة إلى خبرته العسكرية والإدارية: وإلى عقابه الذي لا يرحم، وإعدامه خصومه السياسيين والمنشقين على حكمه. وإلى نزعته القتالية، وانتهازيته المحسوبة، وإلى استعداده لاستغلال المثل الدينية لتحقيق مطامعه السياسية"[٥٠].

وخلق موقف (اهرنكروتز) هذا صدعاً في الرؤية الاستشراقية (الناطقة بالإنكليزية، في أقل تقدير) لشخصية (صلاح الدين) وإنجازاته، ونجم عنه جدل ومناقشات مستفيضة في صفوف

---

[٤٨] A. S. Ehrenkreutz , Saladin (NewYork, State University Press :١٩٧٢)p. ٢٣٤

[٤٩] Ibid , p. ٢٣٥

[٥٠] Ibid , p.٢٣٨

المختصين بالدراسات العربية. ويمكننا تلمس ذلك في المراجعات الضافية للكتابين، التي غطت أغلب الدوريات الاستشراقية والتاريخية، والتي اتسع بعضها فتحوّل إلى دراساتٍ مستفيضة[٥١]. وما أمكن حصره منها هو مراجعات كل من (بيتر هولت)، و(ستيفن رنسيمان)، و(ايرالا بيدوس)، و(جورج سكانلون)، و(كليفورد بوزوورث)، و(بيرتولد شبولر)، و(شارل بيللا)، و(د . س . ريتشارد)، و(م س ـ خان)، و(ويلفر مايدلنك). وباستثناء (هولت)، لم يرجح المراجعون السابقون رؤية (اهرنكروتز) على ما قدّمه (كب)[٥٢]. وإذا كان (مايدلنك) (الذي شغل سابقاً منصب أستاذ العربية في أوكسفورد)، قد أيّد بعض طروحات (اهرنكروتز)، بشأن علاقة (صلاح الدين) بـ(نور الدين)، ووصف اتجاه (كب) بالرومانتيكي[٥٣]، فإنه أسوة ببقية المراجعين، قد وجه سهام النقد لمعطيات (اهرنكروتز) الأخرى.

---

٥١ كتب د . س ريتشارد دراسة مفصلة قارن فيها بين طروحات كب واهرنكروتز بشأن حياة صلاح الدين المبكرة، هي:

D. S. Richards, "The Early History of Saladin" ١٩٧٣, vol. XVI p.١٤٠-١٥٧ .

أما هولت، فقدم دراسة للطروحات الاستشراقية عن صلاح الدين، في مقال حمل عنوان (صلاح الدين ومعجبوه)، نشره في مجلة (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية)، عام ١٩٨٣.

P.M. Holt, "Saladin and His Admirers", BSOAS, ١٩٨٣, Vol.LXIII.

٥٢ رأى هولت أن كتاب اهرنكروتز يعبر عن الاتجاهات الجديدة في دراسة تاريخ هذه الحقبة.

P. M. Holt "Review of Ehrenkreutz's Saladin "BSOAS, ١٩٧٣, vol. ٣٥ , p. ٦٥١

٥٣ W. Madelunge , Review of Gibb's Life of Saladin "JNES, ١٩٧٥ , vol. ٣٣ p. ٢٠٧

وإذا توقفنا أمام موضوع المصادر، لا نرى - خلاف (هولت)- من يقف إلى صف (اهرنكروتز)[٥٤]. بينما أكد (سكانلون) (أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الأمريكية في القاهرة) أن معالجته ليست أكثر من "اتجار بالنصوص"[٥٥]. وسجل (ريتشاردز) (من جامعة أوكسفورد): "أن رؤية (كب) تستند إلى تفحص صارم للمصادر، في حين لا يملك (اهرنكروتز) شيئاً من ذلك"[٥٦]. وقد عبّر (بوزووث) (أستاذ التاريخ الإسلامي آنذاك في جامعة مانجستر) عن حنقه لتجاهل (اهرونكروز) لحجج (كب) النافذة في نقد (ابن الأثير)[٥٧].

وإذا انتقلنا إلى موضوع السيرة، يقفز إلى المقدمة مؤرخ الحروب الصليبية الشهير (ستيفن رنسيمان)، الذي انتقد فقر معالجة (اهرنكروتز) لمرحلة الجهاد ضد الصليبيين، ولتجاهله للحقائق الأساسية للصراع الإسلامي الصليبي، التي كانت واضحة تماماً في ذهن (كب)[٥٨]. ونقد (رنسيمان) بقسوة ادعاء (اهرنكروتز) بضعف اهتمام (صلاح الدين) بأمر الجهاد، بدليل عدم تصديه للصليبيين منذ قدومه إلى الشام عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وانشغاله بمحاربة الأمراء

٥٤ Holt, "Saladin .." p. ٢٣٧

٥٥ G. Scanlon, "Review of Ehrenkreutz s Saladin", English Historical Review, ١٩٧٤, Vol. p.٢٧٧

٥٦ Richards, "The Early .." p. ١٤١

٥٧ C. Bosworth "Review of Gibb's Life of Saladin" JSS, ١٩٧٥, vol ٢٠ p. ٣٢٠

٥٨ S. Runciman, " Review..."p.٦٨

المسلمين، فقد أكّد (رنسيمان) أن طبيعة جيش (صلاح الدين) الإقطاعية، فرضت عليه بذل جهود مضنية لكي يستطيع مواجهة الجيش الصليبي الثابت، وإنه لم يتمكّن من أن يزج في الميدان جيشاً يوازي الجيش الصليبي، إلاّ بعملية بناء الجبهة الإسلامية الموحدة، التي استلزمت منه أكثر من اثني عشر عاماً[٥٩]. أما (مايدلنك)، فقد نبّه إلى أن (صلاح الدين) قد فضل طوال هذه السنوات، ممارسة حرب استنزاف متواصلة، أضعفت البناء الصليبي، ومكّنته في النهاية من الانقضاض عليه وتدميره[٦٠]. ورفض (شارل بيلا) طروحات (اهرنكروتز)، وأكّد بأن كتابه لم يقدّم الدراسة المنتظرة عن (صلاح الدين)[٦١]. بينما كان (خان) أقسى نقاد هذا الكتاب، حيث عد رؤيته تشويهاً متعمّداً للصورة التي قدّمها (كب). وفي معرض رده على تقول (اهرنكروتز) بشأن ضآلة إنجازات (صلاح الدين)، أكّد بأن (صلاح الدين) هو الذي أنقذ الشرق من الغزو الصليبي، وزرع –بتحريره القدس– جواً من الثقة، كان له أكبر الأثر في طرد الصليبيين التام من الشرق، بعد ذلك[٦٢].

---

٥٩ Ibid , p. ٦٨

٦٠ Madelunge, "Review.." , p. ٢٠٨

٦١ Bellat, "Critipue de Ehrenkreutz Saladin" Arabica ١٩٧٣, Tome ٢٠.p. ٣٢٠

٦٢ M.S. Khan, "Review of Ehrenkreutz's Saladin" IQ, ١٩٧٤, vol XVLLL , p.٥٨

(النص المترجم)

حياة (صلاح الدين الأيوبي)
بالاستناد إلى كتابات بهاء الدين وعماد الدين

للمستشرق
هاملتون الكسندر روسكين كب

المقدمـــة:

تمثل حياة (صلاح الدين) وإنجازاته واحدة من أعظم اللحظات في تاريخ الحروب الصليبية، ففي الأدب يظهر في أغلب الأحيان بصورة البطل الفاتح الذي أذاق أعداءه مرارة الهزيمة، وأجبرهم في نهاية الأمر على الاستسلام لإرادته. أما إمعان النظر في واقع حياته، فيكشف لنا أنه لم يكن مجرّد فاتح، ولكنه كان رجلاً صاول كثيراً أعداء من بني جلدته، ليفرض عليهم أخيراً الالتحاق به، والجهاد تحت رايته. ومن هذه الزاوية نراه يجاهد في سبيل مثالياته، تجلّت بطولته ليس فقط في انتصاراته، وإنما بالأنموذج الذي يقدّمه لإنسان تملكته الآمال والرؤى، وأعجزه الزمن عن تحقيقها.

مصادر سيرة (صلاح الدين):

يعد كتاب (الكامل في التاريخ) أهم الأعمال التاريخية، ومؤلفه (ابن الأثير) أشهر كُتّاب عصره. والكتاب من قبيل التاريخ العام لمن جاء بعده من المؤرخين. وقد اشتمل على وصف لحملات (صلاح الدين)، ولكنه للأسف قام بكتابة تقريض، أكثر منه تاريخ، لحكام الموصل الزنكيين، ممن كانوا خصوم (صلاح الدين) الألداء. وقد استعان في كتابته لعمله هذا بكتاب (البرق الشامي) للمؤرخ (عماد الدين الكاتب الأصفهاني)، لكن استخدامه لهذا الكتاب، الذي غطى تقريباً أغلب محطات روايته لأحداث سيرة (صلاح الدين)، قد جاء بإعادة صياغة روايات (عماد الدين) بأسلوبه الخاص، المتسم بالتلاعب الماكر،

والتحريف المتعمد، والتعابير الدعائية. وهذا الأمر - بحد ذاته- ذو قيمة كبيرة، لأنه يعكس، بصورة شاخصة، طبيعة المشكلة الأخلاقية التي كان على (صلاح الدين) أن يتنكب لها، والموقف التشكيكي الذي يتخذه المجتمع الإسلامي تجاه الحياة العامة(٦٣).

يكاد يكون (ابن أبي طي) مصدرنا الوحيد عن الحياة المبكرة لـ(صلاح الدين)، و(ابن أبي طي) شيعي من (حلب)، وهو معاد لـ(نور الدين)، لكننا نراه، وبصورة غير متوقعة، ودوداً تجاه (صلاح الدين)، إلاّ أن أعماله فقدت جميعاً، ولم تصلنا إلاّ عبر الاقتباسات التي أوردها المؤلفون اللاحقون(٦٤).

ونظراً للسمات التي حملها كل من (ابن أبي طي) و(ابن الأثير)، فمن الواضح أنه لا يمكن التعويل عليهما لحلّ المسائل المتعلّقة بشخصية (صلاح الدين)، ودوافعه. ولو لم يتوفر لدينا سواهما لما تيسر لنا المضي لاكتشاف الجوهر الحقيقي لإنجازات (صلاح الدين).

ومنذ عام ١١٨٨م، فصاعداً، ترفدنا رواية مؤرخ موصلي آخر، هو (بهاء الدين ابن شداد) (١١٤٥-١٢٣٤)، وهو قاضي جيش (صلاح الدين)، وصاحب سره. وفي نصه الذي كتب بأسلوب بسيط ومباشر، يقدّم لنا (صلاح الدين) بصورة لا يمكن لأي كتاب تاريخ

---

٦٣ لتحليل المصادر ووجهات النظر ينظر:

H.A.R. Gibb" The Arabic Sources for the Life of Saladin", Speculum, January ,١٩٥٠,pp.٥٨-٧٢

٦٤ ١١٦٠- ١٢٣٥ مما يجعله معاصراً لابن الأثير.

اعتيادي أن يقدمها، فهو يصوره صديقاً حميماً، يتعامل معه رجلاً لرجل[٦٥]. ولربما يلام (بهاء الدين) بأنه ليس ميالاً للنقد، لكنه لم يقع تحت تأثير عبادة بطولة (صلاح الدين)، وإعجابه به إعجاب رجل مترفع ونزيه لا يخفى عنه شيء. ولا مجال للشك بأنه كان يخفي الحقائق، أو يزورها، في روايته للسنوات الخمس الأخيرة من حياة (صلاح الدين). ووجود مؤرخ من هذا القبيل، لأي حاكم من حكام العصور الوسطى، أمر نادر حقاً. لكن (بهاء الدين)، على أي حال، يصوّر لنا (صلاح الدين) وهو في ذروة نجاحه، وكذلك في أجواء اليأس، التي خيّمت إبّان الحملة الصليبية الثالثة، لذلك هو لا يتحفنا إلاّ بالقليل عن الكفاح الطويل والشاق الذي خاضه (صلاح الدين) لإقامة سلطته.

وفي ظل هذه الظروف، يصبح من قبيل الحظ الذي لا يصدق، أن يكون لدينا مصدر رابع يغطي (سواء في نصه الأصلي، أو من خلال التلخيصات الموثوق بها) سيرة (صلاح الدين) بمجملها، وهذا المصدر يناظر (ابن شداد) تقريباً في قربه من الموضوع، وفي موثوقيته. وهو سلسلة من اليوميات المهنية، دوَّنها كاتبُ (صلاح الدين) الشخصيّ: (عماد الدين الكاتب الأصفهاني) (١١٢٥-١٣٠١)[٦٦]،

---

[٦٥] بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية، تحقيق، شولتنس (ليدن: ١٧٨٧، القاهرة: ١٣١٧هـ/١٨٩٩-١٩٠٠).

[٦٦] الكاتب عماد الدين الأصفهاني (١١٢٥-١٢٠١) ارتقى إلى منزلة رفيعة في بلاط السلاطين السلاجقة ودار الخلافة في بغداد (حيث ألف كتاباً عن إدارتهم قام البنداري لاحقا باختصاره)، ثم انتقل إلى خدمة نور الدين، وأصبح منذ عام ١١٧٥ كاتباً لصلاح الدين. وقد كتب عن سني عمله

وقد شغلت سبعة مجلدات، لكن للأسف لم يتبق منها سوى اثنين. ويضاف إلى هذا الكتاب، عمل منفصل لـ(الأصفهاني)، يغطي حملات (صلاح الدين) بين عامي ١١٨٧ – ١١٩٣. وثمة مقتطفات كثيرة من المجلدات السبعة للسنوات المفقودة وردت في المصادر اللاحقة.

ينتمي (عماد الدين) إلى الطبقة الجديدة من الموظفين الإداريين من خريجي المدارس، دخل أولاً في خدمة السلاطين السلاجقة والخلافة في (بغداد)، ثم احتل منصباً رفيعاً في (دمشق)، في خدمة (نور الدين)، ومن ثم أصبح كاتباً له عام ١١٧٥. وهو أشهر رجال البلاغة في عصره، وتتميز كتاباته باستخدام الصنعة البلاغية، والنثر المسجوع، تلك الطريقة التي أوجدتها وطورتها طبقة كتاب الدواوين. ولكن لأن ما يكتبه كان يصدر عن يراع متضلّع في الكتابة والمعاني، فلم يضعف ذلك الأسلوب الأدبي رواياته في وضوحها ودقتها. والنظرة المعمّقة إلى كتابات (عماد الدين) تظهرها رزينة بدرجة لافتة للنظر. فإذا تركنا

هذه كتاباً دوّن فيه تجاربه في خدمة صلاح الدين بعنوان (البرق الشامي)، بقي منه الآن مجلدان هما الثالث والسابع، محفوظان في مكتبة البودليان بأوكسفورد: الأول (المجلد الثالث تحت الرقم MS,Bruce ,١١، والثاني (المجلد السابع تحت الرقم MS.Marsh,٤٥)، إلا أن القسم الأكبر من الكتاب حفظه لنا أبو شامة في اقتباساته عنه. وقد كتب عماد الدين لاحقاً كتاباً أصغر دوّن فيه انتصارات صلاح الدين وصراعه ضد الصليبيين، حققه الكونت دي لاندبرك، ونشره في ليدن عام ١٨٨٦. ولتحليل هذين المجلدين انظر مقالي:

المنشور في: al-Barq alsh-Shami

Wiener Zeitschrift fur die Kundi die Morgenlandes . L١١. ٩٣-١١٥

جانباً المسائل المتعلّقة بالأسلوب الأدبي، فهي لا تختلف عما يسطره موظف حي الضمير من تقارير، وهذا هو بالتأكيد حال (عماد الدين).

ومن المفارقة أن يتوشح عمل تاريخي رصين، وحافل بالوقائع التاريخية، بدثار الصنعة الأدبية، فلا تكاد توجد جملة واحدة لديه، حتى في أسمى تجلياته، تتضمن إطراءً مباشراً لـ(صلاح الدين). وبالتأكيد إن (عماد الدين) يُظهر إعجابه العميق بـ(صلاح الدين)، لكن عظمة الأخير تأتي نتيجة طبيعية من الوقائع نفسها، ناهيك عن إيراد (الأصفهاني) أحياناً بعض الانتقادات لولي نعمته. وثمة دليل آخر يعزّز دقة (عماد الدين)، نجده في النصوص التي أوردتها مصادر تاريخية أخرى أولية، فثمة حقائق لدى (وليم الصوري)، أو (أرنول)، تتضمن درجة مذهله من التطابق معه في طابعها العام، الذي يمتد غالباً إلى التفاصيل.

وثمة مسألة أخرى أثارتها علاقة (أبي شامة) (١٢٠٣-١٢٦٧) بما قدّمه من اختصاراتٍ لنص (عماد الدين) الأصلي في (البرق الشامي)؛[٦٧] إذ إن علينا أن نعوّل على هذه التلخيصات فيما يقارب ثلثي الكتاب بأكمله، والجواب لا لبس فيه: إن تلخيص (أبو شامة) قد أنجز بمهارة وعناية، حيث حذفت الفقرات ذات التزويق الأدبي البحت، والكثير من المواد ذات الطابع الشخصي، وتم الاحتفاظ

---

[٦٧] كتاب الروضتين لأبي شامة، وهو تلخيص لأعمال عماد الدين الأصفهاني، وابن الأثير، وغيرهم من الكتاب، طبعة القاهرة: ١٢٨٧ والمجلد الأول، القسم الأول، قد حققه: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة: ١٩٥٦.

بنص (عماد الدين) في مكان خاص، إذ ميزه (أبو شامة) بدقة عما كتبه هو.

وإلى جانب الكتب السابقة، تتوافر بين أيدينا متجددات (القاضي الفاضل) (والتي، لسوء الحظ، لم يتبق منها خلا القليل من المقتبسات، التي أوردها المؤلفون المتأخرون)، فضلاً عن قَدْر كبير من الوثائق والرسائل، وكلها أنجزها هذا الوزير المخلص والصديق الحميم لـ(صلاح الدين) في (مصر). وللأسف لم يجمع أو يحقق منها إلاّ القليل، في حين ما يزال القسم الأعظم منها مخطوطاً.

وأخيراً، هناك إشارات آنية وردت في مصادر أخرى، كما هو الحال مع الرحالة الأندلسي (ابن جبير)، ووكيل الديوان (ابن مماتي)، الذي أخرج كتابه عن الأراضي في (مصر)، بعيد وفاة (صلاح الدين)[٦٨]. أضف إلى ذلك عملين لمؤرخين من الجيل التالي: الأول عن (حلب)، كتبه (ابن العديم)، والثاني عن (بلاد الشام) لـ(ابن واصل)، هو: (مفرج الكروب)، (حقّقه: جمال الدين الشيال، القاهرة: ١٩٥٣-١٩٦٠)، وكلاهما كررا الكثير من نصوص (ابن الأثير).

---

٦٨ لتحليل عدد من مراسيمه، انظر:

H.Helbig ,AL-Qadi al-Fadil

أما الرحالة الأندلسي (ابن جبير)، فقد حقق رحلته (وليم رايت). انظر:

W. Wright (G.M.S. Vol.,V,Lieden,١٩٠٧)

أما عمل ابن مماتي فقد حققه عزيز سوريال عطية، ونشره في القاهرة عام ١٩٤٣.

حياة (صلاح الدين) المبكرة:

أمضى (صلاح الدين)، واسمه (يوسف)، سني طفولته في (بعلبك)، وغيرها من القلاع، التي كان والده (نجم الدين أيوب) والياً عليها، أولاً بالنيابة عن (عماد الدين زنكي)، ولاحقاً عن حاكم (دمشق). وفي سن الرابعة عشرة (أي في عام ١١٥٢م) التحق بعمه (شيركوه)، الذي يعمل لدى السلطان (نور الدين)، وأقطعه إقطاعاً[٦٩]. وفي عام ١١٥٦ خلف أخاه الأكبر (تورانشاه)، الذي كان نائباً عن عمه في شحنكية دمشق، لكنه تخلّى عن هذا المنصب بعد أمدٍ قصير، احتجاجاً على تلاعب قام به صاحب الديوان، وانضم إلى (نور الدين) في حلب ودمشق، وأصبح مقرباً منه "فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر"[٧٠]. ثم أسند إليه مرة أخرى منصب الشحنكية في (دمشق)، لفترة غير محددة[٧١]. وخلا الحديث عن مهارته في لعب الكرة والصولجان (الجوكان)، وهو اهتمام ورثه عن أبيه، وعن العناية بالعلوم الدينية، ربما بوحي تأثره بـ(نور الدين)، لا يعرف شيء آخر عن سني حياته المبكرة.

لم تحقق أولى حملات (أسد الدين شيركوه) في (مصر)، بالنيابة عن (نور الدين)، نجاحاً يذكر. ففي ١١٦٤ حُوصرت قواته على يد

---

[٦٩] ابن أبي طي، م١، ص٨٤، طبعة حلمي أحمد، م١، ق١، ٢٠٩-٢١٠.

[٧٠] ابن أبي طي، في أبو شامة، م١، ص١٠٠. طبعة حلمي احمد، م١، ق١، ص٢٥٢، وعن العلاقة بين صلاح الدين ولنور الدين، انظر:

N. Elessef, Nur ad-d-Din,Damascus,١٩٦٧

[٧١] عماد الدين في كتاب أبي شامة، م١، ص١٦١.

(أملريك) الملك الصليبي، و(شاور) الوزير المصري، في (بلبيس). وكان من حسن الحظ أن عقدت الهدنة مع (نور الدين). وفي ١١٦٧ عاد (شيركوه) مرة أخرى مصحوباً بـ(صلاح الدين). وخاض معركة في جنوب القاهرة، هزم فيها (أملريك)، ثم سار شمالاً إلى الإسكندرية، حيث عهد لـ(صلاح الدين) بزمام القيادة، وعاد هو إلى الصعيد. وصمد (صلاح الدين) في (الإسكندرية) خمسة وسبعين يوماً، وأخيراً أنقذته ترتيبات الصلح التي أجراها (شيركوه) مع المصريين. وأمضى (صلاح الدين) بضعة أيام في معسكر الفرنجة، ربما كرهينة، ولعل تلك كانت فرصة لصداقته مع (همفري)، صاحب (تورون).

ولثالث مرة، صدرت الأوامر إلى (شيركوه) بالتوجه إلى (مصر)، في نهاية ١١٦٨، وفقاً لالتماس عاجل من الخليفة الفاطمي (العاضد). وبناءً على أوامر (نور الدين)، أرغم (صلاح الدين) على مرافقة عمه دون رغبته، فنراه يقول: "لكأنما أُساق إلى الموت"[٧٢]. ويبدو أن (نور الدين) عزم أن يكون الوجود هذه المرة في (مصر) دائمياً. ووفقاً لـ(ابن الأثير)، فإن تلك أيضاً هي رغبة الخليفة الفاطمي، وأنه قد تعهد بمنح الأمراء الشاميين (أو بالأحرى مماليكهم) الإقطاعات[٧٣]. وأعطى (نور

[٧٢] أكثر مصدر للثقة في هذا الشأن قول صلاح الدين نفسه لابن شداد (طبعة شولتنس، ص٣٣ – طبعة القاهرة، ص٣١). أما رواية ابن الأثير، فعلى الرغم من طابعها الحيوي، فلقد جاءت غفلاً من الإشارة إلى المصدر، مما يثير الشك حيال ما تضمنته من تفاصيل. ولا يقدم لنا عماد الدين الأصفهاني شيئاً بخصوص هذا الموضوع، إلا أن أبا شامة يورد مقطعاً من قصيدة للشاعر الدمشقي حسان العرقلة يمدح صلاح الدين، وينتقد عودته من مصر.

[٧٣] ابن الأثير، كامل التواريخ، طبعة تورنبرك، ١٨٥٣–١٨٦٤، م١١، ص٢٢٢.

الدين) (شيركوه) قيادة ألفين من حرسه الخاص، و(الأسدية) نسبة إلى (أسد الدين شيركوه)، ومعهم ستة آلاف من قوات التركمان.

وكانت أولى مآثر (صلاح الدين)، عند التقدّم إلى (مصر)، القبض على الوزير المتآمر (شاور)، الذي كان مسؤولاً عن استدعاء الفرنج، وإعدامه، بناءً على أوامر الخليفة. ونصب شيركوه (وزيراً)، وفوضت الإدارة بالنيابة عنه إلى (صلاح الدين)، (وهذا على الأرجح هو السبب الذي دفع (نور الدين) للإلحاح على (صلاح الدين) لمرافقة عمّه إلى مصر)[٧٤].

(صلاح الدين) وزيراً للخليفة الفاطمي:

وعندما توفي (شيركوه) فجأة، بعد تسعة أسابيع من توليه الوزارة، اقترح الأمراء تعيين (شهاب الدين محمود الحارمي)، خال (صلاح الدين)، محله، لكنه، وخوفاً من معارضة بعض هؤلاء الأمراء، نصح الخليفة الفاطمي (العاضد) بإسناد المنصب لـ(صلاح الدين). وتم ذلك بالفعل، على الرغم من استياء بعض أمراء (نور الدين)، وعودتهم إلى بلاد الشام[٧٥]. وقد حفظ لنا التاريخ مرسوم توليته وزيراً، المؤرخ

---

[٧٤] أبو شامة، م١، ص١٥٩، س ٢-٣.

[٧٥] إن رواية ابن الأثير التي تظهر أن البلاط الفاطمي هو الذي اختار صلاح الدين، أملاً في استغلال صغر سنه، وضعف موقفه العسكري، تعتورها جملة اعتراضات، فعماد الدين الذي كان آنذاك الكاتب الخاص لنور الدين في دمشق (أي في مركز يتيح له معرفة الحقائق) قد أكد خلاف ما أورده ابن الأثير، أن الأمراء بعد اختلاف ونقاش اجتمعت كلمتهم على صلاح الدين "وألزموا صاحب القصر بتوليته"، أما ابن أبي طي فقد ذكر أن شهاب الدين الحارمي كان أول الأمراء المرشحين، ولكنه وبسبب

في ٢٦ آذار ١١٦٩، بلقب: (الملك الناصر). وقد دبجه قلم صديقه المخلص، ومستشاره: (القاضي الفاضل)[٧٦]. ومن بين تجلياته هناك عبارة تقول: "الجهاد أنت رضيع دره، وناشئة حجره، فشمر له عن ساق من القنا، وخض به بحراً من الظبى... حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك"[٧٧].

معارضة بعضهم، أوصى العاضد باختيار صلاح الدين. أما بشأن كفاءة صلاح الدين العسكرية، فلا شك أنه قد خلف شيركوه في قيادة فرقة (الأسدية)، التي هي أقوى الوحدات الشامية (قارن ابن أبي طي، أبو شامة، م١، ص١٧٢)، لكن عملية استياء بعض الأمراء من تعيين صلاح الدين يؤكدها ليس فقط عودتهم إلى بلاد الشام، وإنما تواصل عدائهم لصلاح الدين، ومن بينهم غرس الدين قلج. أبو شامة، م١، ص٢٤٩، أما قطب الدين ينال المنبجي، فانظر: أبو شامة، م١، ص٢٤٥-٢٤٦ والهوامش، وابن الأثير، م١١، ص٢٨٤.

[٧٦] حقق هذا المرسوم: هيلبك، ص٥٣-٦١، وهذه الفقرة موجودة في ص٦٠. أورده أيضاً: أبو شامة، م١، ص ١٦١.

[٧٧] إن ما ذكره بهاء الدين عن التغير في سلوك صلاح الدين، وتركه الخمر، وسواها من الأمور، منذ ذلك الوقت (طبعة شولتنس، ٣٥" القاهرة، ص٣٢-٣٣)، هي ربما من قبيل استذكارات ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص١٧٣)، وإن مصطلح (السلطان) قد ورد في مرسوم تقليد شيركوه، حيث أطلق عليه الخليفة الفاطمي لقب (سلطان الجيوش)، وقد تكررت هذه النسبة لصلاح الدين (هيلبك، المصدر السابق، ص٥٨، م١، ٩). ويعزز هذا النص ما أورده أبو شامة (م١، ص١٣٠، س١، س١٣) بأن مصطلح السلطان يطلق على الوزير بوصفه قائد جيوش المؤمنين، وأن استخدامه لشخص صلاح الدين يأتي ضمن طابع السلطة الزمنية، التي كانت رائجة في آسيا أثناء العصر السلجوقي. وليست هناك إشارة بأن لقب السلطان قد منح لصلاح الدين من قبل الخليفة العباسي في أي وقت من الأوقات، على العكس فقد واصل صلاح الدين تبني صيغة الملك الناصر في مخاطباته الرسمية، وفي النقود التي سكها بوصفه وزيراً على مصر. للمزيد انظر:

G. Wiet ," Le inscriptions de Saladin" Syria,١٩٢٢,pp.٣٠٧-٣٢٨.

وكمثال على استخدام مصطلح (السلطان) للدلالة على صلاح الدين قبل عام ٥٧٠هـ/١١٧٤ انظر: ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص١٨٤، س٣ و٦" ١٩٢، س١٥ في عام ٥٦٦" ص١٩٦،

كانت العقبة الرئيسة، دون شك، هي الجيش المصري المؤلف من بضع فرق من الخيالة البيض، ونحو ٣٠ ألفاً من المشاة السودان[٧٨]. وإن (صلاح الدين)، كما قيل، قد بادر في التو ببناء جيشه على حساب الأمراء المصريين. وعندما نشب التمرد في صفوف السودان، كان قد أصبح لديه من القوة ما يمكنه من قمعهم، وإخراجهم خارج (القاهرة) إلى صعيد مصر، حيث قام إخوته في السنوات الخمس التالية بسحق تمرداتهم المرة تلو الأخرى[٧٩].

أما قوات البيض، فلم يبد منها حراكٌ، ويبدو أنها تعاونت مع (صلاح الدين) في صدِّ هجمات (أملريك) على (دمياط)، وفي العملية العسكرية على (غزة)[٨٠] وفي عملية الاستيلاء على (أيلة).

س١٨ و٢٧ في عام ٥٦٧). والإشارة الأخيرة ذات أهمية بالغة، لأنها اقتباس من خطبة رسمية" وعماد الدين (أبو شامة، م١، ١٩٤، س٢٠ و٢٤ (عام ٥٦٧)، والبستان الجامع (تحقيق كلود كاهن، منشور في مجلة الدراسات الإسلامية BEO ، م٧-٨ ، ص١٣٩، س١٧ (سنة ٥٦٨).

٧٨ المقريزي، الخطط، م١، ص٦٨، يظهر فيه العقبة التي مثلها وجود الجيش الفاطمي المؤلف من عدة فرق من البيض، تصل إلى نحو ٤٠ ألف خيّال، والمشاة السودان بنحو ٣٠ ألف. وكان مصدره هو القاضي الفاضل، الذي كان آنذاك صاحب ديوان الجيش. ولا بد أن الرقم الأول يتضمن كذلك بعض القوات الإضافية من العرب، وقد صور عماد الدين الأصفهاني بصورة حية العداء بين القوات المصرية والقوات الشامية (عماد الدين: أبو شامة، م١، ١٦٢.

٧٩ في الأعوام ١١٧١ و١١٧٢ هزم (تورانشاه) السودان في مصر العليا، واستولى في عام ١١٧٣ على مدينة ابريم. وقد ثاروا مرة أخرى في أسوان عام ١١٧٤ وقام أخوه العادل بقمع تمردهم، ثم هزموا مرة أخرى في كوبتوس في عام ١١٧٦، وفي الوقت نفسه أرسلت حملات باتجاه شمال إفريقيا، وصلت حتى طرابلس، بقيادة قرقوش.

٨٠ William of Tyre ,ed. Salloch ,Leipzig,١٩٣٤ ,XX,٢١ (Trans.,II,٣٦٧. وفيه يؤكد عند حديثه عن الغارة على غزة، "بأنه لم يسبق أن اجتمع للترك مثل هذا العدد، وحسب الرواية أن مجموع الفرسان وحدهم تجاوز الأربعين ألفاً، وحتى مع الأخذ بنظر الاعتبار طابع المبالغة في

إلغاء الخلافة الفاطمية:

إلا أن (نور الدين) كان يلح على (صلاح الدين) لاتخاذ الخطوة الحاسمة بإعلان الخطبة للخلافة العباسية في (مصر)[٨١]. وفي حزيران ١١٧١ أصدر إليه أمراً رسمياً للقيام بذلك. وفي الوقت نفسه أبلغ الخليفة العباسي بهذا الإجراء[٨٢]. وأطيع الأمر دون أن تثار أي

هذا القول، فإن صلاح الدين ولا شك قد استعان بالجيش المصري إلى جانب قواته هو في هذه العملية. وعندما أجرى العرض العام في ١١٧١ للجيش كان عدد الفرسان (من دون الخيالة العرب كان حسب ما هو مدون رسمياً ١٤ ألفا (المقريزي، الخطط، م١، ص٨٦ وهو ينقل عن يوميات القاضي الفاضل).

[٨١] لقد سبق أن حث عماد الدين الأصفهاني شيركوه على إعادة الخطبة للعباسيين، في رسالة شعرية، أوردها أبو شامة، م١، ص١٦٠، السطر٧. وعن خطوات صلاح الدين للتهيئة لذلك، انظر: ابن أبي طي، مقتبس في أبو شامة، م١، ص١٩٣، و١٩٦، والمجلد الثاني، ص١٣-٢١. وكذلك عماد الدين، المصدر السابق، ص١٩١ (ابن الأثير، م١، ص٢٤٠)، لكن هناك تلميح في الخطاب الأخير (أبو شامة، م١، ص٢٤٣، السطر ١٦) عن الصراع في الوعي الذي أثارته وزارته.

[٨٢] يقول عماد الدين الأصفهاني، الذي كان آنذاك كاتباً لنور الدين (أبو شامة، م١، ص١٩٨-١٩٩) إن نور الدين كان واثقاً كل الثقة بصلاح الدين، الذي كان يعمل له عمل القوي الأمين، لأجل ذلك بعث له في شوال من عام ٥٦٦ بتغيير الخطبة (حزيران ١١٧١). وأصدر في الوقت نفسه بشارة عامة، وأخرى خاصة، إلى الخليفة بهذا الغرض، وكان عماد الدين هو من كتب البشارتين. وقد حملهما شهاب الدين ابن أبي عصرون، ومعه أوامر بأن تقرأ البشارة العامة بكل مدينة يمر بها في طريقه إلى بغداد. وقد أورد أبو شامة نص البشارة نقلاً عن ابن أبي طي. وهذا القول يعزّز ما ذكره عماد الدين بأن إبلاغ الخليفة قد تم في الوقت نفسه الذي وجهت فيه الأوامر إلى صلاح الدين، أي دون الحاجة لانتظار وصول أخبار إلغاء الخطبة. ثم يمضي عماد الدين لاحقاً فيقول إن أخبار إلغاء الخطبة قد وصلت دمشق في ١٠ شوال (١٦ حزيران)، وأن الخطبة للعباسيين قد أعلنت للمرة الأولى في الإسكندرية في ٧ رمضان (١٤ ايار)، وفي القاهرة في ٢٨ رمضان (٥ حزيران)، أي قبل أن تصل صلاح الدين أوامر نور الدين بشأنها. وكان الخليفة آنذاك على فراش الموت. إن دقة نص عماد الدين وموثوقيته يعززها نص الخطاب الذي أرسل إلى الخليفة، مما يجعل من الصعوبة رفضه لمصلحة تغليب روايات المصادر الحلبية والموصلية، فضلاً عن ذلك فإن ابن الجوزي (المنتظم، تحقيق كرنكو، حيدر اباد

اضطرابات في العلن، أما أبناء البيت الفاطمي الحاكم، فقد جرى وضعهم في حجز كريم، وفصل بين الجنسين، بحيث أن سلالتهم ستنقرض بمرور الزمن. أما كنوز القصر الفاطمي الهائلة، فقد تقاسمها قادة (صلاح الدين) و(نور الدين).

العلاقة مع (نور الدين):

يبدو أن العلاقات الطيبة قد توترت قليلاً بين (نور الدين)، ونائبه المخلص في مصر (صلاح الدين)، آخذين بنظر الاعتبار الفشل في القيام بجهد عسكري مشترك، خلال الحملة على (الشوبك) في تشرين الأول ١١٧١[٨٣].

وقد استغل (ابن الأثير) هذه الفرصة ليتحدث عن مجلس للحرب، عقده (صلاح الدين) وأباه، لمناقشة إمكانية حدوث غزو من قبل (نور الدين)، لكن ذلك لا يعدو أن يكون أنموذجاً على الافتراءات المغرضة التي يقدّمها هذا المؤرخ[٨٤]. ولا يبدو أن الهدية التي قدمت

١٣٥٥-١٣٥٦/ ١٩٣٨-١٩٤٠، م١٠، ص٢٣٧، س٣)، يحدد تاريخ وصول ابن أبي عصرون إلى بغداد في يوم السبت ٢٢ محرم ٥٦٧ (٢٥ أيلول ١١٧١) بالخبر بأن "الخليفة قد خطب له بمصر"، وهذا النص كما هو واضح لا ينسجم مع القول بأن الخطبة لم يناد بها إلاّ في العاشر من محرم.

٨٣ يقدم ابن أبي طي اتهامات نقيضة (أبو شامة، م١، ص١٧٣) لكن أبا شامة يرفض هذه الاتهامات، ويسجل، وهو على حق، اتهامه لابن أبي طي بالتحامل ضد نور الدين بسبب ما اتخذه من إجراءات بحق الشيعة في حلب، ومن بينهم عائلة ابن أبي طي نفسه.

٨٤ لا يتحدث ابن الأثير عن وجود وحشة بين نور الدين وصلاح الدين حتى وقوع عملية الشوبك في ١١٧١/٥٦٧، معقباً على ذلك بالحديث عن صلاح الدين والأمراء (ابن الأثير، تاريخ الأتابكة، مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، القسم الشرقي، م٢، ص ٦٨" الكامل، م١١، ص٢٤٤-٢٤٥.

إلى (نور الدين) من ممتلكات القصور الفاطمية قد نالت الرضا[٨٥]. وفي رسالة لـ(نور الدين) إلى الخليفة، مؤرخة بين (١١٧٢ و ١١٧٣)، نسب لنفسه الفضل في العمليات العسكرية لغزو النوبة وشمال أفريقيا[٨٦]. والاتهام الثاني الذي يقدمه (ابن الأثير)، جاء عند انسحاب (صلاح الدين) من خطة منسقة لحصار (الكرك)، على إثر تقدم (نور الدين)، لكنه مثال إضافي على السلوك غير المسؤول من قبل هذا المؤرخ[٨٧]. فوفقاً لترتيب (ابن الأثير) نفسه للحوادث، فإن (صلاح الدين) زحف إلى بلاد الشام في شوال عام ٥٦٨ (أيار - حزيران ١١٧٣) وحاصر (الكرك). وعندما تلقى (نور الدين) النبأ جهز قواته للانضمام لـ(صلاح الدين)، لكن الأخير عاد أدراجه. وإذا كانت رواية (وليم الصوري)[٨٨] للحادث تجعله متأخراً قليلاً (شهر تموز)، فهي تعزّز تماماً رواية (عماد الدين). وما تضمنته رسالة للقاضي الفاضل[٨٩] إلى (نور الدين)، تظهر بأن الحملة ليست أكثر من مجرد عملية دورية، تستهدف إزالة البدو من المنطقة، وتدمير مزارعهم، لمنعهم من مساعدة الفرنج كأدلاء. وفضلاً عن ذلك، فإن (ابن الأثير)

---

٨٥ يقول ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص ١٩٩) إن صلاح الدين لم يجد إلاّ القليل من المال في القصور الفاطمية، لأن (شاور) كان قد ضيعه في إعطائه للفرنج في المرات التي تقدم ذكرها.

٨٦ نسب نور الدين في خطاب بعثه إلى الخليفة، فضل الفتوحات في بلاد النوبة وشمال أفريقيا، إلى نفسه (أبو شامة، م١، ص٢١٥).

٨٧ الكامل، م١١، ص٢٥٨-٢٥٩. ومن المثير أن هذه الحادثة لم تذكر في كتاب الباهر، انظر: طبعة مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، م٢، ص٢٩٢-٢٩٣.

٨٨ William of Tyre ,XX,٢٨ trans.,II,٣٨٩-٣٩٠.

٨٩ أبو شامة، م١، ص٢٠٦.

نفسه يقول إن (نور الدين) قد شرع في عام ١١٧٣ في حملة طويلة ضد السلطان السلجوقي (قلج أرسلان) في الشمال[٩٠].

وبالأساس إن أي اختلاف بين الرجلين مردّه، على الأرجح، إلى اختلاف وجهات النظر السياسية، فـ(نور الدين) يعد (بلاد الشام) ساحة المعركة الرئيسة ضد الصليبيين، ويرى أن (مصر) بالمقام الأول مصدر للأموال اللازمة لتوفير نفقات الجهاد، وثانياً مصدر للقوة البشرية. أما (صلاح الدين)، من جانب آخر، فإنه يزن الأمور من خلال التنافس السابق على (مصر) بين المسلمين والصليبيين، ومن محاولة الاستيلاء على (دمياط) في ١١٦٩. ولعله كان على دراية بمفاوضات (أملريك) مع الإمبراطور البيزنطي في ١١٧١، لأجل ذلك كان مقتنعاً بأن مصدر الخطر الرئيس كان على (مصر)، على الأقل في الوقت الحاضر. علاوة على ذلك كان (صلاح الدين) أكثر إدراكاً من (نور الدين) بطبيعة الخطر الذي يمثله عداء القوات الفاطمية، واستعدادها للتوصُّل إلى تفاهم مشترك مع الفرنجة. ومن وجهة نظره، أن من أولوياته أن يبني قوة عسكرية منيعة للحفاظ على (مصر) في مواجهة كل الاحتمالات، وأن يوجه كل ما يستطيع السيطرة عليه من أموال لهذا الغرض. وهناك أيضاً أسباب تتعلّق بالأمن الداخليّ، الذي

---

٩٠ ابن الأثير، م١١، ص٢٥٧-٥٨، قارن: أبو شامة، م١، ص٢٢٣، وعماد الدين (أبو شامة م١، ص٢١٥ بالأسفل)، وكذلك ميخائيل السرياني في:

Chronique de Michel le syrien(Patriarche d'Antioche ١١٦٠-١١٩٩),ed. J.B .Chabot ,Paris ,١٨٩٩-١٩١٠, III, ٣٥٠.

تعكسه حقيقة أنه أرسل قوات إلى (صعيد مصر)، ولاحقاً إلى (اليمن)، التي كانت من معاقل الفاطميين، حتى نجح (تورانشاه) بمهاجمتها، والاستيلاء على مدنها، في مقتبل عام ١١٧٤[٩١]. وقد بقي هاجس الدفاع عن (مصر) أحد أبرز أولويات (صلاح الدين) حتى أواخر أيامه[٩٢]. ولكن في تلك الأثناء، كان هناك نوع من الحديث عن نية (نور الدين) للقيام بفعل ما، وما يعزّز ذلك إنكار (صلاح الدين) الصريح للرواية المشوّهة التي كانت متداولة في (الموصل)، ففي حديث له مع (ابن شداد) يقول: "كان بلغنا عن (نور الدين) أنّه ربما قصدنا بالدار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف، ونخالف، ونشق عصاه، ونلقى عسكره بمصاف نرده، إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم، وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا، حتى وصل الخبر بوفاته"[٩٣]. وقد أكّد (الأصفهاني)[٩٤] بوضوح استياء (نور الدين) المتنامي من تأخر (صلاح

[٩١] رسالة للقاضي الفاضل إلى نور الدين بعد محاولة التمرد الفاطمي في عام١١٧٤، أبو شامة، م١، ص٢٠٠.

[٩٢] كان تأثير الدعاية الفاطمية في اليمن سبباً صريحاً لحملة صلاح الدين على اليمن في رسالة عام ٥٨٥ /١١٨٩ إلى السلطان الموحدي أبو يوسف يعقوب، انظر:

Melanges Rene Basset ,II ,Paris ,١٩٢٥,٢٨٢

أما تفسير ابن الأثير بأن صلاح الدين كان يبحث عن ملجأ يتراجع إليه، في حال دخل في صراع مع نور الدين (وهو احتمال غير وارد تحت أي ظرف كان)، فيقدّم صورة أنموذجية عن النقص في الجهد، لإعطاء تقييم حقيقة الوضع الذي كان صلاح الدين يواجهه في مصر بين عامي ١١٧١ و١١٧٤.

[٩٣] بهاء الدين، طبعة شولتنس، ص٥٠" طبعة القاهرة، ص٣٧.

[٩٤] يتحدث عماد الدين عن اغتياظ نور الدين من تأخّر صلاح الدين بتقديم الأموال اللازمة للجهاد (أبو شامة، م١، ص٢٠٦).

الدين) في مدّه بالأموال اللازمة للجهاد[٩٥]، أكّده بوضوح (عماد الدين الأصفهاني). ولعلّ الغيرة قد اعتملت بنفس (نور الدين)، من المديح المفرط الذي توجّه إلى "الملوك من بيت شادي"، وأن (نور الدين) -كما يُلاحَظ - لم يكن محبوباً من الشعراء، "بسبب قلة ما يغدقه عليهم من عطايا"[٩٦]. وعلى أي حال، أياً كانت المخططات التي كانت تدور في ذهنه، فإن وفاته في ١٥ أيار ١١٧٤ قد وضعت حداً لها.

(صلاح الدين) حاكماً على (مصر):

دخل كبار قادة وأمراء (نور الدين) في تنافس: أيهم يتولى الوصاية على (الملك الصالح) ابن (نور الدين). ولم يكن بمقدور (صلاح الدين) البقاء غير مبالٍ بما جرى من خصومات ومنازعات بينهم، لكنه لبعض الوقت آثر التريُّث، مكتفياً بمبايعة (الصالح) سيداً وحاكماً له[٩٧].

وفي حزيران حاصر (أملريك) (بانياس)، ولم يستطع (صلاح الدين) التحرُّك تجاهها، لأنه كان يتوقع هجوماً للأسطول الصقلي، بعد تلقيه

---

[٩٥] يورد عماد الدين قول صلاح الدين لمبعوث نور الدين: "ما يضبط مثل هذا الإقليم إلاّ بالمال العظيم"، أبو شامة، م١، ص٢٠٩، ٢٢٢-٢٢٥.

[٩٦] أبو شامة، م١، ص٢٠٠ بالأسفل. وهو يتحدّث عن عدم إغداق نور الدين الأموال على الشعراء.

[٩٧] خطاب أورده أبو شامة، م١، ص٢٣٠.

تحذيراً بهذا الشأن من (القسطنطينية)[٩٨]. ولم يكد شهر تموز يأذن بالانتهاء، حتى ظهر الأسطول المذكور، وكان هدفه (الإسكندرية)، لكن الهجوم رد على أعقابه. وفي الوقت نفسه أخذت الأوضاع في (بلاد الشام) تدخل منحنى خطيرا، فقد وقّع أمراء (دمشق) صلحاً منفرداً مع الصليبيين، ودفعوا أتاوة مالية[٩٩].

وقام ابن عم (نور الدين) في (الموصل) بغزو جميع ممتلكاته خلف الفرات، وضمها إليه. وفي آب قام الخصي (كمشتكين)، بعد تأمين وصايته على (الصالح)، بالانتقال به إلى (حلب)، وألقى قادة (نور الدين) في السجن. وأصاب الشلل وحدة الإسلام في وجه الصليبيين. ورداً على اعتراضات (صلاح الدين)، وتلميحاته بالتدخل، ناشده الضباط أن يمحض الولاء البيت الذي نشأ فيه. كان رده قاطعاً: "إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلاّ ما جمع شملهم، وألّف كلمتهم، وللبيت الأتابكي – أعلاه الله– إلاّ حفظ أصله، وفرعه، ودفع ضره، وجلب نفعه. فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر آثارها عند

---

[٩٨] كان معسكراً في ذلك الوقت على منطقة فاقوس الحدودية، والتي كان قد تقدم بقواته إليها عندما نما إلى علمه خبر مهاجمة الصليبيين بانياس. عماد الدين (أبو شامة، م١، ص٢٣١) (قارن ابن أبي طي، المصدر السابق، ص٢٣٣، س١٤)، وكذلك ص٢٣٥، س٧.

[٩٩] يسجّل صلاح الدين في رسالة بعثها إلى قاضي حلب الشهير ابن أبي عصرون، واوردها ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص٢٣٣) بأن السبب الأساس لاستيائه من الأمراء الدمشقيين هو أن الهدنة قد أطلقت يد الصليبيين لشن الهجمات على المناطق الأخرى.

تكاثر أطماع العداة، وبالجملة أنا في واد، والظانون بنا ظنَّ السوء في واد"[١٠٠]

(صلاح الدين) في بلاد الشام:

ونتيجة لوعي (صلاح الدين) التام بمهمته وريثاً فعلياً لـ(نور الدين)، فقد أعدّ نفسه لإعادة بناء صرح إمبراطوريته الممزّقة، وفي نداءٍ عاجل من قادة (دمشق)، زحف إليها من (مصر)، ليدخلها تقريباً دون معارضة، وذلك في ٢٨ تشرين الأول ١١٧٤[١٠١]

ومع أن عمل (صلاح الدين) هذا مبرر تماماً، سواء أمام نفسه، أو أمام التاريخ، فإن المعاصرين له، وخصومه، لا يمكن أن يتوقع منهم أن يروه بالمنظار نفسهِ، فبالنسبة لهم كان (صلاح الدين) واحداً منهم، ومن الطبيعي أن تحرّكه دوافعهم نفسُها، من إيثار المصلحة الذاتية، وشهوة السلطة، وأنه ألبس هذه الدوافع رداءً فضفاضاً من إعلاء

---

[١٠٠] عماد الدين من (أبو شامة، م١، ص٢٣٤).

[١٠١] ابن الأثير، م١١، ٢٧٥، وفيه يشدّد على صغر حجم القوة التي اصطحبها صلاح الدين معه من مصر: (٧٠٠ فارس فقط). أما أبو شامة فلا يذكر أي عدد لها في تلخيصه لعماد الدين م١، ص ٢٣٦، لكن الأحداث التالية توضح أن العدد الذي ذكره ابن الأثير أكثر قبولاً من وصف بهاء الدين لهذا الجيش بأنه تجهز بجمع كثير من العساكر (طبعة شولتس، ٤٢، طبعة القاهرة، ٣٨-٣٩). أما ابن أبي طي من (أبو شامة، م١، ص٢٣٧ الحاشية) فيصف موقف أهل دمشق العام من صلاح الدين بأنه داعم، على الرغم من أن شهادته في هذا الشأن مشكوك بها حسب ما سبق، لكنها تتفق مع كل الإشارات الواردة في المصادر الأخرى.

الصوت بشأن مبادئ الإسلام، ومصالحه[١٠٢]، وأن استيلاءه على (دمشق) لم يكن إلاّ حركة ذكيّة لشلّ حركتهم.

وفي كانون الأول عين (صلاح الدين) أخاه (طغتكين) حاكماً على (دمشق)، وزحف شمالاً على رأس قوة صغيرة، وتمكّن من الاستيلاء على (حمص) و(حماه)، وطالب بأن تفتح (حلب) له أبوابها، بوصفه الوصيّ الشرعيّ لـ(الصالح)، عندها خلص أمراء (نور الدين) بأنه عازم على رفع شأن آل أيوب على حساب البيت الزنكي.

تلك هي صورة (صلاح الدين)، كما قدّمها مؤرخ الموصل، وكانت هي أيضاً الصورة التي حملها (الصالح) نفسه، الذي ناشد سكان (حلب) حمايته ممن نصب نفسه منقذاً له[١٠٣]. ولقد لجأ الأمراء إلى الأساليب المألوفة من استئجار الفداوية من أتباع (سنان/ شيخ الجبل) لاغتيال (صلاح الدين)، والاتفاق مع (ريموند) صاحب (طرابلس)، على مهاجمة (حمص)، لتشتيت جيش (صلاح الدين)، وذلك مقابل الحفاظ على العلاقات الطيبة الماضية، والقادمة مع (طرابلس)، وكذلك توجيه نداء إلى (الموصل) للتدخل باسم تضامن الأسرة

---

[١٠٢] انظر وصف ابن أبي طي لمقابلة صلاح الدين لمبعوث الأمراء النورية في حلب (قطب الدين ينال)، كما وردت لدى أبو شامة م١، ص٢٣٧-٢٣٨، والرواية الموافقة لها التي قدمها عماد الدين (وهي في هذه الحالة رواية من الدرجة الثانية)، عماد الدين، المصدر نفسه، ص ٢٤٠ فما بعدها.

[١٠٣] ابن الأثير (المجلد ١١، ص٢٧٦-٢٧٧. يحذف بطبيعة الحال من روايته تفاصيل التنازلات التي قدمت للشيعة في حلب، بهدف كسب دعمهم، انظر: ابن أبي طي (نقلاً عن أبي شامة، م١، ص٢٣٨ في الأسفل).

الزنكية[١٠٤]. ولقد فشلت محاولة الاغتيال، لكن (صلاح الدين) انسحب للدفاع عن (حمص)[١٠٥]. وبعد شهرين، وعلى إثر مواجهة قوة مشتركة من الموصل وحلب، وافق (صلاح الدين) على الانسحاب من شمال الشام، والاكتفاء بالاحتفاظ بدمشق، بوصفه نائباً لـ(الملك الصالح) فيها. لكن المتحالفين حاولوا الضغط عليه بصورة أكبر لاستحصال تنازلات إضافية. وعندما رفض المضي في هذه التنازلات، قاموا بمهاجمته، لتحلّ بهم الهزيمة عند قرون (حماة)،

---

[١٠٤] يقول ابن أبي طي بأنه خلال حصار صلاح الدين لحلب للمرة الأولى، أرسل فرقة من جيشه لدعم عماد الدين زنكي، الذي كان محاصراً في سنجار، من قبل أخيه سيف الدين غازي، صاحب الموصل، وكان قد أعلن ولاءه لصلاح الدين. وقد تطرّق بهاء الدين إلى العلاقة بين عماد الدين وصلاح الدين (طبعة شولتنس، ص٤٤، طبعة القاهرة، ص٤٠)، وابن الأثير، م١١، ص٢٧٨. لكنه لا يشير إلى الدعم العسكري الذي قدّمه صلاح الدين لعماد الدين. وفيما يخصّ علاقته بالحشاشين، انظر:

Bernard Lewis , Saladin and the Assasins" BSOAS,XV,١٩٥٣٢٣٩-٤٥.

[١٠٥] وفقاً لوليم الصوري، فإن صلاح الدين قام إثر استيلائه على قلعة حمص (التي كان قد اكتفى بوضع قوة من الجند لمحاصرتها، أثناء توجّهه نحو الشمال) بإطلاق سراح الرهائن الصليبيين الموجودين فيها، والذين كانوا محتجزين، لضمان تنفيذ بنود الشروط التي ترتبت على الصليبيين نتيجة إطلاق نور الدين لسراح ريموند، في مقابل قيام ريموند بعدم التدخّل في صراعه مع حلب. لكن وليم الصوري يجعل الاستيلاء على قلعة حمص بعد معركة قرون حماة. أما عماد الدين (وهو في هذه الحالة شاهد عيان يحدّد تاريخها بدقة في ١٧ آذار (أبو شامة، م١، ٢٤٥)، بينما وقعت المعركة في ١٣ نيسان، فإنه من المحتمل أن يكون كلامه مرتبطاً بالهدنة التي أبرمها صلاح الدين مع ريموند في الصيف (عماد الدين من أبو شامة، م١، ص٢٦٢) وأن الوسيط كان همفري صاحب تورون (وليم الصوري، المصدر السابق، المكان والصفحة نفسهما)، الذي تنسب له رواية شامية بأنه قد نصّب صلاح الدين فارساً في وقتٍ سابق (Lane-Poole ,٩١).

بفضل الإمدادات المصرية، التي وصلت في الوقت المناسب[١٠٦]. وعندما ظهرت قوات (صلاح الدين) أمام (حلب)، للمرة الثانية، لم يكن أمام (كمشتكين) إلا قبول شروطه، التي نصّت على بقاء (حلب) بأيدي (الصالح)، في مقابل اشتراك الجيشين في العمليات ضد الصليبيين[١٠٧].

كان هذا الأمر مع نهاية شهر نيسان من عام ١١٧٥، وبعد ذلك ببضعة أيام وصل مبعوث من الخليفة، حاملاً التقليد بحكم مصر وبلاد الشام[١٠٨]. وبالنسبة لأغلب أمراء عصره، لم يكن للتقليد إلا أهمية شكلية، أما بالنسبة لـ(صلاح الدين) فالأمر يعني أكثر من ذلك بكثير؛ فإذا كان للحرب التي نذر لها نفسه أن تكون جهاداً حقيقياً فعلاً، فلا بد من إدارتها وفقاً للالتزام الدقيق بأحكام الشريعة الإسلامية.

---

١٠٦ يعزو ابن أبي طي جزئياً انتصار صلاح الدين إلى تفاهم مسبق بينه وبين عدد من عناصر عساكر حلب. انظر كذلك:

. William of Tyre ,XXI,٨;trans,II,٤١٠

ويورد ميخائيل السرياني الحجة نفسها، ولكن فيما يتعلّق بالمعركة التي ستقع في العام التالي، ويجعل المخامرين قادة في عسكر الموصل: Michel le syrien ,III,٣٦٦

١٠٧ يذكر ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص٢٥٠) أن بنود الاتفاق تضمنت أنه إذا خرج الملك الصالح لمحاربة أي عدو، خرج صلاح الدين بنفسه وجيشه معه، وأن لا يغير الدعاء له على المنابر، وأن تكون السكة باسمه. لكن رسالة فاضلية إلى بغداد، في العام التالي، تذكر بأن جوهر الاتفاق بأنه يتضمّن ضرورة مشاركة جيش حلب في الجهاد (البيكار) ضد الكفار (أبو شامة، م١، ص٢٥٤). أما ابن الأثير (م١١، ص٢٧٩) فيقول بأن الخطبة قد أسقطت عن الصالح أثناء حصار حلب.

١٠٨ نص المنشور يمنح صلاح الدين بلاد الشام بمجملها، إلى جانب مصر واليمن، مستثنياً منها حلب وتوابعها. وقد كتبه ضياء الدين ابن الأثير، مما يعكس قلق هذه العائلة، وخوفها، وشكّها في صلاح الدين. صبح الأعشى، م١٠، ص١٣٥-١٤٤.

فالحكومة التي تسعى لإعلاء راية الله في معركة من المعارك، لا بُدَّ لها ليس فقط أن تكون حكومة شرعية، وإنما عليها أن تؤدّي واجبها الشرعي عن طريق ممارستها الإدارة، وفي معاملتها لرعاياها. باختصار، إن (صلاح الدين) كان يهدف إلى إعادة حكم الشرع إلى السياسة، وهذا الأمر قد أصبح – بمنظور الأمراء المعاصرين له– ليس مجرّد مفهوم أجوف، وإنما يتصف بالسخف. وبالنتيجة فإنه في سنيه الأولى، وأسوة بالمثال الذي قدّمه (نور الدين)، قام بإلغاء كل الضرائب غير الشرعية. وكان هذا أيضاً أول ما قام به بعد دخوله (دمشق). أصبح هذا ديدنه اللازم كلما أضاف أقاليم جديدة إلى ممتلكاته، واشترطه في كل مراسيم التقليد التي كان يصدرها لولاته[١٠٩]. وصحيح أن هذه

---

[١٠٩] في ديباجة مرسوم أصدره لإلغاء الضرائب غير الشرعية في مصر، يعود تاريخه إلى ٣ صفر ٥٦٧ (٨ تشرين الأول ١١٧١)، وأورده أبو شامة، يظهر أن هذه الفكرة قائمة في ذهنه في قوله: أما بعد فإنا نحمد الله سبحانه وتعالى على ما مكّن لنا في الأرض، وحسنه عندنا، من أداء كل نافلة وفرض، ونصبنا له من إزالة النصب عن عباده، واخترنا له من الجهاد في الله حق جهاده، وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل (وقد وردت قائمة المكوس لدى المقريزي في الخطط (ج١، ص١٠٤–١٠٥)، تحقيق: فييت، م٢، ق١، ص٨١–٨٦)، حيث يشير المحقق إلى أن نور الدين قد قام في الوقت نفسهِ بإلغاء المكوس في دمشق – وفي الحقيقة أنه قبل بضع سنوات، ووفقاً لما أورده أبو شامة (م١، ص١٥)، فإن صلاح الدين قد دعم نور الدين، فيما وجّه إليه من نقد قاس، ومعارضة إجراءاته بهذا الصدد في (حماة) من قبل شيركوه. ولدينا شواهد إضافية عن إلغاء صلاح الدين المكوس في دمشق، بعد استيلائه عليها (أبو شامة، ص٢٣٥، ٢٣٧. وفي حلب، المصدر نفسه، م٢، ص٤٧. ويتضمّن عماد الدين في مخطوط البرق الشامي، م٥، الورقة ٨٧ نص مرسوم كتبه عماد الدين في هذا الشأن). وهناك أيضاً في مكة، في المصدر نفسه – أبوشامة – ، م١، ص٢٧٠، وفي الرحبة، نفسه، م٢، ص٦٩. وهو اقتباس مهم من مرسوم سيؤكد أن تلك هي سياسته القائمة، قارن أيضاً: الشروط رافقت إعطاء نور الدين قره أرسلان آمد، عماد الدين، من أبي شامة، م٢، ص٤٤ (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٧٣a، وبصورة عامة في كل بقية التقليدات، وكذلك فإن الموضوع نفسه قد تكرّر مرة بعد مرة في

الشروط لم تكن تراعى في كل حين، لكن من يتجاوزها سيجد نفسه مجرّداً من منصبه بالنتيجة[١١٠]. وإن واجب الحاكم، كما أكّد مراراً وتكراراً، هو "أن يكون ذاباً عن الدين، وحامياً لأملاك المسلمين". وقد عنّف أخاه (الملك العادل) لتفكيره بأن "البلاد تباع وتشترى"[١١١]. ولقد كررت المصادر، بصورة حية، الدهشة المتواصلة لقادته وأتباعه، بأن حب التملّك الشخصيّ، وممارسة السلطة، لم يمثلا له أهميّةً تذكر، خلافاً لأغلب الأمراء والحكّام، وبضمنهم أهل بيته، ممن كان ذلك أعظم دوافعهم. وإن الثروة – بالنسبة له – هي شيء يستخدم في الجهاد في سبيل الله، أو يعطى للآخرين[١١٢]. وهذه الحقيقة كانت معروفة، حتى بالنسبة للصليبيين. ففي عام ١١٧٥، عندما توصّل (ريموند) إلى اتفاق مع (حلب) لردع (صلاح الدين)، لاحظ (وليم الصوري) "أن أي ازدياد في سلطة (صلاح الدين) يثير الشك في أعيننا... فقد كان رجلاً حكيم المشورة، شجاعاً في

رسائله إلى ديوان الخلافة في بغداد، وفي الفقرات المتعلّقة بالحكم في رسائله إلى نوابه، على سبيل المثال عماد الدين في الفتح القسي، ص١٢٥. وفيما يتعلّق بتطور مفاهيم الجهاد والتديّن والحكومة العادلة في عهدي نور الدين وصلاح الدين، انظر:

E.Sivan ,L'Islam et croisade ,Paris ,١٩٦٨ ,٥٠ -١٣٠

[١١٠] عزل أبو الهيجا عن نصيبين، أبو شامة، م٢، ص٣ (ابن الأثير، ص٣٢٢، يتوسع في هذه النقطة مع تحريف ملفت للنظر).

[١١١] ابن أبي طي (أبو شامة، م٢، ص٥٢).

[١١٢] قارن خلاصة عماد الدين في روايته عن الاستيلاء على آمد "وإنما شرحت هذه القصة لتعلم أن الدنيا لم يكن لها عند السلطان قدر" (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٦٥، بهاء الدين، طبعة شولتنس، ص١٢-١٣: طبعة القاهرة ، ص١٠-١٣).

الحرب، وكريماً بلا حدود، ويبدو من الحكمة أن نقدم المساعدة للملك الطفل... ليس حباً به، وإنما لنشجعه بوصفه خصماً لـ(صلاح الدين)"[١١٣].

لا نستطيع أن نجد تبريراً أعظم من ذلك للسياسة التي كان (صلاح الدين) يتبناها، ونجده يستخدم بعد ثماني سنوات الحجة نفسها في خطاب صريح إلى الخلافة، قال فيه:

وما يحسب الخادم إن كيداً للعدو أكيد، ولا جهداً لأهل الضلال أجهد، ولا عائدة بغيظ رؤساء أهل الإلحاد أعود، من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام، وإلاّ فلينظر هل يشق على الكفار مزيد، أحد سواه من ولاة الإسلام؟"[١١٤].

(صلاح الدين) والموصل:

لكن هذه الحقيقة لم تكن واضحة في (الموصل)، حيث استقبلت شروط المعاهدة مع (حلب)، والمرسوم الخليفي، بغضب يصل إلى درجة عدم التصديق، فالأمر لم يكن فقط أن يتحول أمير زنكي إلى تابع مفترض لأحد صنائع أبيه. فالأنكى هو أن يكون هذا الصنيع كوردياً، جاء ليتحدّى احتكار الأتراك للسلطة، الذي مضى عليه نحو

---

[١١٣] William of Tyre, XXI,c. ٦ (trans., II. ٤٠٥-٤٠٦)

وقارن: ميخائيل السرياني، م٣، ص٣٦٥، حيث صور البطريرك اليعقوبي سلوكه النبيل تجاه قوات الموصل المنهزمة، وأعطياته الباذخة للقوات الشامية.

[١١٤] رسالة للقاضي الفاضل بعد الاستيلاء على آمد في ٥٧٩ / ١١٨٣ في كتاب الروضتين (أبو شامة، م٢، ص٤٠).

قرن ونصف من الزمن، وأن يكون لبني جلدته اليد الطولى في فتوحاته. ومما لا شك فيه أن أصعب ما واجهه (صلاح الدين) من تحديات هو روح الغيرة، التي تحكّمت بمشاعر رفقائه من القادة الأتراك، فقد أخرت عملية استيلائه على (حلب) ست سنوات. وكان لها تأثير مثير للإحراج، طوال الحملة الصليبية الثالثة. وقد عبّر (ابن الأثير) بحيوية عن ذلك، من خلال تكرار الكلمات الحانقة، التي أوردها أحد رفاقه المواصلة عندما كان يراقب (صلاح الدين)، وهو يتلقى العون لامتطاء فرسه أثناء الدفاع عن القدس، حيث قال:

"ما تبالي يا ابن أيوب أي ميتة تموت، يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي"[١١٥].

إلى أي حد امتزجت دوافع (صلاح الدين) الشخصية، بإخلاصه الحقيقي لقضية الإسلام ومُثُله؟ هذا أمر ليس من الميسور حقاً إدراك حقيقته، لكن وفي ضوء ظروف عصره، فإنه على أي حال، مهما كانت دوافعه غير ذاتية، فإن الطريق الوحيد لتحقيقها لا تتم إلاّ بتجميع السلطة في يده، وأن يضع على رأس كل منصب مهم شخصاً يستطيع أن يركن إلى ولائه ركوناً تاماً. وهذا يعني - أولاً وآخراً - رجال من أبناء أسرته، ويأتي بعدهم في المرتبة: مماليكه، وقادة جيشه من الكورد، وولاته، ممن ثبت البرهان على ولائهم. وكانت مواقف

---

[١١٥] ابن الأثير، م١٢، ص٥٠. قارن الإشارات التي عزاها ميخائيل السرياني لقوات الموصل Michel Le syrien,III,٣٥٦.

الزنكيين ذاتها هي التي قادته للمضي في هذا الاتجاه، عندما وعى عدم جدوى الاعتماد على التحالفات والاتحادات.

وقبل أن يغادر (صلاح الدين) شمال الشام، أرسل قواته للإغارة على أراضي الإسماعيلية في (جبل السماق)[١١٦]، ثم انسحب بعدها إلى (دمشق)، وعقد هدنة مع (القدس). وأرسل مبعوثاً إلى (الموصل) ليضمن إقرار (سيف الدين) هذا الاتفاق، فتلقى تأكيدات مرضية. لكن وعندما جاء مبعوث (الموصل) بدوره، لأخذ موثق (صلاح الدين) على شروط الاتفاق، أبرز بالخطأ وثيقة تتضمّن حلفاً هجومياً بين (الموصل) و(حلب) ضده[١١٧]. لذا أعد (صلاح الدين) للأمر عدته. وفي نيسان من عام ١١٧٦ جمع الحلفاء قواتهم مرة أخرى، أمّا (صلاح الدين) فقد زحف باتجاه الشمال، وقابلهم عند (تل السلطان)، على بعد ١٥ ميل من (حلب)، فلم يقدروا على الصمود في وجهه، ففروا من أمامه لا يلوون على شيء[١١٨]. لكن (صلاح الدين) منع جيشه من تعقبهم،

---

[١١٦] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، تحقيق: جيويت، نيويورك، ١٩٠٧) وكذلك:

Bernard Lewis, "Saladin and the Assassins ",p.٢٤٠-٢٤١.

[١١٧] أبو شامة، م١، ص٢٥٣، وخطاب للقاضي الفاضل (نفسه، ص٢٥٤).

[١١٨] يعزو ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص٢٦٠-٢٦٧) الفضل الأكبر في انتصار صلاح الدين إلى أخيه شمس الدولة (تورانشاه)، الذي عاد من اليمن إلى دمشق قبل ثلاثة أيام فقط (٧ شوال =١٩ نيسان)، أما عماد الدين (أبو شامة، ص٢٥٩، س٢٦) فيبدو أنه يخلط بين اسم (تورانشاه) و(فروخشاه)، قارن: عماد الدين (أبو شامة، ص٢٥٤ الأسفل، ٢٥٦، س٥). وفي الحقيقة إن (تورانشاه) قد بقي في دمشق والياً لها، ولديه تعليمات لمنع الإفرنج من القيام بالغارات أثناء توجه الجيش إلى الشمال (ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص٢٦٠، س٨). ويؤكد عماد الدين أن صلاح الدين و(تورانشاه) قد التقيا، للمرّة الأولى منذ حملة الثاني إلى اليمن، في حماة في ٢ صفر (١٠ آب) (أبو شامة، ص٢٦١، في الأسفل). أما نصّ ابن الأثير عن المعركة (م١١، ص٢٨٣) فمختلف إلى حد

وقسم بينه الغنائم الكبيرة، ثم أطلق الأسرى، وأعادهم إلى (سيف الدين غازي)، ومعهم أقفاص الحمام والهزار والببغاء، التي وجدها في سرادقه الخاص، وبيت شرابه، مرفقاً إياها برسالة تهكمية، مفادها أن يلهي نفسه بها، ويتوقّف عن مباشرة المغامرات العسكرية في المستقبل. وكما ذكر مؤرخ حلبي، فإن السلطان الساخر قد "وجد عسكر الموصل كالحانة، من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنين والمغنيات... وأن السلطان أرى ذلك عسكره، واستعاذ من هذه البلية"[١١٩].

وبغض النظر عن شهامة (صلاح الدين)، فقد بقيت (حلب) متمسكة بموقفها[١٢٠]. ولكن بعد أن اقتحم حصونها المنيعة في الشرق والشمال في (بزاعة) و(منبج) و(عزاز)، عاد من جديد

كبير، حيث يجعل شخصاً واحداً فقط في عداد القتلى، ووجد في زلفندار –القائد المفضل لدى سيف الدين– كبش الفداء في هذه الهزيمة.

[١١٩] ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص٢٥٥) على الرغم من أن تزويقات كهذه مشكوك في صحتها من حيث المبدأ، فإن المقطع الأخير لا يمكن أن يكون ابتكاراً. ومن المنطلق ذاته يقارن عماد الدين بين انضباط قوات صلاح الدين في حصار سنجار عام ١١٨٢/٥٧٨، مع انفلات وفوضى قوات ديار بكر، عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ١٧ب.

[١٢٠] مما زاد مقاومة النورية في حلب ثباتاً، كما يفترض توقع المساعدة من الإفرنج، بعد أن ضمنها لهم ريموند وجوسلين مقابل إطلاق سراحهم ووصول قوات الموصل إلى حلب، عماد الدين (أبو شامة، م١، ص٢٥٥ أعلى الصفحة)، وقارن: William of Tyre ,XXI ,١l(trans.,II,٤١٤ ومن المحتمل أيضاً أنه كانت لديهم معلومات عن الغارة المزمعة لبلدوين على البقاع في بداية شهر آب، والتي كان صلاح الدين قد سبق أن حذر أخاه (تورانشاه) منها (أنظر هـ١ أعلاه). قارن بين نص عماد الدين عن الغارة، وعزل ابن المقدم عن بعلبك، والهزيمة التي تعرض لها (تورانشاه) في عين الجر (أبو شامة، ص٢٦١) وبين وليم الصوري في كتابه (الترجمة، م٢، ص٤١٢-٤١٣) حيث أن ذكر شمس الدولة يجعل التاريخ الدقيق هو ١١٧٦ وليس ١١٧٥ كما ورد في الهامش، ص٤١٢.

لمحاصرتها في ٢٦ حزيران، ورضخ المدافعون عنها على تجديد الترتيبات التي أُجريت قبل عام مضى. وتم توقيع صلح عام بعد ذلك بشهر، دخل فيه (صلاح الدين)، وأخوه (تورانشاه)، في (دمشق)، وأمراء (حلب) و(الموصل)، و(الأراتقة) نواب الموصل على (حصن كيفا) و(ماردين). وقد أقسم الجميع أن يكونوا يداً واحدة على من ينقض هذا الاتفاق[١٢١]. وتمت المصادقة رسمياً على الحلف، من خلال تبادل الوفود خلال عام من الزمن. واستعاد (الصالح) (عزاز)، بعد التماسها من قبل أخته الصغرى، وتعهّد بأن يضع جيش حلب بين أيدي (صلاح الدين) عندما يطلبه[١٢٢]. وخلال حصار (صلاح الدين) لـ(عزاز)، تعرّض لمحاولة اغتيال ثانية، أشد تصميماً على يد الحشيشية، لذلك عندما عاد من (حلب) توجّه إلى (مصياف)،

---

[١٢١] تاريخ الاتفاق (١٦ محرم = ٢٥/٢٦ تموز) ينفرد بتقديمه كمال الدين بن العديم في كتابه زبدة الحلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٤-١٩٦٧، م٣، ص٢٩-٣٠، وترجمة بلوشيه في Revue de L orient Latin ,III, Paris ,١٨٩٥,٥٨

أمّا التاريخ الذي حدّد به ابن الأثير مغادرة صلاح الدين حلب أي ٢٠ محرم (م١١، ص٢٨٥-٢٨٦)، فمبعثه خطأ في قراءة التاريخ الذي قدمه عماد الدين (أبو شامة، م١، ص٢٦١، س٢٧).

[١٢٢] قدم عماد الدين (أبو شامة، م١، ص٢٦١) شروط المعاهدة، لكنه لم يشر إلى الشرط الذي يفرض استدعاء الجيش الحلبي. وقد عبر عن ذلك بوضوح بهاء الدين (طبعة شولتنس، ص٤٧= طبعة القاهرة ١٣) من خلال الإشارة إلى تواجد قوات حلب تحت قيادة صلاح الدين في الحملة على كيليكية في عام ١١٨٠. أما تبادل المبعوثين في عام ٥٧٢ /١١٧٦-١١٧٧ فقد ورد لدى عماد الدين، بالرجوع إلى ابن أبي طي (أبو شامة، ص٢٦٥). ومن الجدير الإشارة إلى إن (تورانشاه) قد دخل المعاهدة، بوصفه حاكماً لدمشق، أي طرفا مستقلا، لأن صلاح الدين قد أطلق يديه بالحكم في دمشق (انظر الهامش١ الصفحة التالية) وانضم إلى الاتفاق أيضاً الأراتقة من نواب الموصل.

القاعدة الرئيسة لهم في بلاد الشام، وضرب عليها الحصار، وبعث قواته تنهب وتخرب المناطق المجاورة لها. لكن ما حدث بعد ذلك أمر تكتنفه الأساطير. إلاّ أن (صلاح الدين) انسحب إلى (دمشق)، وسمح لقواته المصرية بالعودة إلى موطنها. والشيء الوحيد الأكيد هو أنه لما تبقى من حياته، لم يعد لديه ما يخشاه من الحشاشين.

(صلاح الدين) في مصر:

عاد (صلاح الدين) إلى (مصر) – التي كان يحكمها بغيابه أخوه تورانشاه – بعد زواجه بأرملة (نور الدين) في (دمشق)[١٢٣]. وشغل نفسه بشؤونها الداخلية لعام من الزمن. وكان أخوه الذي لا يهدأ (تورانشاه) قد ترك (اليمن)، بعد وصول الأخبار إليه بحملة (صلاح الدين) في (بلاد الشام)، لذا ترك له (صلاح الدين) حكم (دمشق)، مع تفويضه بمطلق الصلاحيات[١٢٤]. أمّا حاكمها السابق (ابن المقدم)، فقد عوض عنها بـ(بعلبك). وحكم (حمص) خاله (محمود بن تكش). وأعطيت (حماة) لـ(ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه). أما ابن أخيه (تقي الدين عمر) أكثر أفراد العائلة اندفاعاً ونزوعاً للقتال، والذي كان

---

[١٢٣] تزوّج صلاح الدين قبل مغادرته إلى مصر من عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، وأرملة نور الدين، بهدف إضفاء الشرعية على خلافته لنور الدين، عماد الدين (أبو شامة، م١، ص٢٦٣ أسفل الصفحة).

[١٢٤] انظر عماد الدين، البرق، م٣، الورقة ٢٥ a، في قوله: وهو متصرف فيها تصرف المالك. وكذلك قول العماد، البرق، م٣ الورقة ١٢٠ أ "عوّل على هذا أخاه... بالشام في السلطنة... وفوّض إليه الأمر وولاه تولية مطلقة.

يراقب، والغيرة تعتمل في نفسه، عملية توزيع المماليك والولايات على أقاربه، كان ما يزال منشغلاً بمحاولة أن يبني لنفسه مملكة في الغرب؛ ففي عام ١١٧٥ قام مملوكه الأرمني (شرف الدين قراقوش) بالاستيلاء على (أوجلة)، وفي السنة التالية توجّه بحملة ثانية، واستولى على (فزان)، على الرغم من اعتراض (العادل)[١٢٥].

لقد كانت إحدى نقاط الضعف لدى (صلاح الدين)، عجزه عن كبح جماح أقاربه. وتواصلت غارات (تقي الدين) باتجاه الغرب لعدة سنوات، مما أدّى بالفعل إلى الاصطدام مع قوات سلطان المغرب الموحدي. وعلى قدر ما بأيدينا من أدلة لم يكن لـ(صلاح الدين) دور في تنظيم هذه الغارات، لكنه تغاضى عنها، وأنه نسبها لنفسه في رسائله التي بعثها إلى (بغداد)[١٢٦]. لكن أتى حين من الوقت، عندما تحرّجت أوضاع (صلاح الدين)، أثناء الحملة الصليبيّة الثالثة، وعندما كان بأمسِّ الحاجة إلى مساعدة (الموحدين)، نراهُ يبذل أقصى ما بمقدوره للتنصّل من مسؤولية القيام بها[١٢٧]. وارتكز جل اهتمامه على

---

[١٢٥] ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص٢٦٠، ٢٦٩-٢٧٠)، أما بالنسبة لغارات ٥٧٥/١١٧٩، نفسه، م٢، ص١٦ وبالنسبة لغارات ٥٧٧ /١١٨١، نفسه، م٢، ص٢٧. ولاستسلام طرابلس وغزو إفريقية في عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، نفسه، م٢، ص٣٨. ومن الجدير بالإشارة إلى أن ابن أبي طي هو مصدرنا عن كل هذه العمليات، لكنه يخلط بين قائد (تقي الدين) الأرمني: شرف الدين قراقوش، وبين تابع (صلاح الدين): بهاء الدين قراقوش.

[١٢٦] انظر على سبيل المثال، عماد الدين، أبو شامة، م٢، ص١٧.

[١٢٧] ينظر:

إنشاء (قلعة القاهرة) وأسوارها الضخمة، التي بدأ العمل بها عام ١١٧١ كإجراءٍ احترازي من إمكانية غزو الإفرنج لها في المستقبل، فضلاً عن تزامن ذلك مع إعادة إنشاء الأسطول[١٢٨].

وفي الوقت نفسهِ كان (صلاح الدين) متحمّساً لأن يبدأ في (مصر) حركة الإحياء الإسلامي، التي كانت قد نشطت في (بلاد الشام) على يد (نور الدين). وقد تبارى هو وأخوه (العادل) في وضع أنموذج لإنشاء المدارس التي تولّت الاضطلاع بهذه المهمة.

وفي أيلول من عام ١١٧٧ تواترت الأخبار بوصول (فيليب الفلندري) إلى (فلسطين)، مما أعطى إشارة البدء من أجل الاستعداد لحرب جديدة. وسواء أكان (صلاح الدين) مطلعاً على المشاريع التي قدمت لـ(فيليب) لغزو (مصر)، أم لا، فإن شروط الهدنة مع الصليبيين كانت تقتضي "أنهم إذا وصل لهم ملك، أو كبير، ما لهم في دفعه تدبير، أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويحالفونه ولا يخالفونه، فإذا عاد

Gaudefroy -Demombynes,"Une Lettre de Saladin au calife Almohade" in Melagnes Rene Basset ,t,II ,Paris ,١٩٢٥ ,pp.٢٨٩-٣٠٥.

١٢٨ إجراءات توسيع الأسطول أوردها ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص٢٦٩ وما بعدها). ويقول المقريزي في كتابه السلوك (ج١، ص٧٣) في حوادث عام ٥٧٧ /١١٨١-١١٨٢ أصلح صلاح الدين قرارة ديوان الأسطول لتشمل الفيوم، ووقف الجيوشي (ص٣٣٦-٣٣٩) والخراجي، والنطرون (ابن مماتي، ص٣٣٤-٣٣٦) وأن الخراج قد ضمن لثمانية آلاف دينار. "أما ابن مماتي فيقول في ص٣٤١ بأن إقطاعيات محددة قد أوقفت للإنفاق على السور والقلعة، وخُوّل الموظفون بطلب المواد الضرورية لإنشائها.

عادت الهدنة كما كانت"[١٢٩]. وكان أول هدف في الحملة الجديدة هو (حماة)، التي هُوجمت في تشرين الأول. لكن الهجوم تم رده على يد القوات المحلية والمتطوعة بقيادة (سيف الدين المشطوب)[١٣٠].
وعند مضي الصليبيين لمحاصرة (حارم)، خطط (صلاح الدين) للقيام بعملية عسكرية واسعة النطاق على (عسقلان) و(غزة). وفي تلك المناسبة بدا أن (صلاح الدين) قد فكّر أنه من الأسلم أن يزج في هذه العملية عدداً من القوات المصرية أكبر من أي وقت مضى[١٣١].

ويرسم لنا (عماد الدين الأصفهاني) صورة حية عن الثقة الطائشة لدى القوات المصرية، عند تحشدها في قاعدة متقدمة، وتشتتهم في

---

[١٢٩] عماد الدين، البرق، م٣، الورقة ٢٥ ب، وقد اقتبسها أبو شامة، م١، ص٢٧٥ وأضاف بأن الهجوم على حماة ذاك لم يكن نقضاً للهدنة.

[١٣٠] عماد الدين، المصدر والصفحة السابقين: اجتمع إليها رجال الطعن والضرب. ويخطئ ابن الأثير (م١١، ص٢٩٤) عندما يجعل هذه الحادثة بعد هزيمة الرملة، ويجعلها نتيجة للعجز المؤقت لصلاح الدين.

[١٣١] William of Tyre ,XXI ,c. ٢٣ (trans .,II,٤٣٠-٤٣١).
وهو يقدر قوات صلاح الدين بثمانية آلاف طواشي بضمنهم حرس صلاح الدين الخاص المؤلف من ١٠٠٠ مملوك و١٨٠٠٠ قره غلامي. ومن الرقم الدقيق الذي يقدّمه المقريزي للقوات المصرية في الخطط، م١، ص٨٦-٨٧ والذي جاء نقلاً عن (مياومات القاضي الفاضل) للسنوات ٥٦٧/١١٧١ و٥٧٧/١١٨١ يتضح بأن العدد الكلي للطواشية أو المماليك النظاميين في الجيش المصري لم يتجاوز في أي وقت من الأوقات الـ٨٠٠٠، وأن القره غلامية (وهم على الأرجح من الخيالة من غير المماليك كانوا في أقصى حد ٧٠٠٠، مع إمكانية أن توجد هناك أيضاً قوات إضافية من الخيالة العرب. ولطالما أن صلاح الدين كان قادراً على الزج في الميدان، بعد أربعة أشهر من الكارثة، قوة لها وزنها، فإن ذلك يدلل على أن العسكر المصري لم يكن برمته مشتركاً في حملة الرملة، لا بل وحتى القسم الأكبر منه. انظر: نص عماد الدين في البرق، م٣، الأوراق ٥ وما بعدها، وقد لخصه أبو شامة في الروضتين، م١، ص٢٧١-٢٧٣.

الإغارة على المناطق الريفية. وجاء رد (بلدوين الخامس) عنيفاً، فالهجوم المباغت الذي أحسن توقيته على فوج الحرس في (تل الجزر) قرب (الرملة) في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر، أوقع بكامل القوة في حالة فوضى. وقاست البقية الباقية الأمرّين من أجل العودة إلى (مصر)، كأفضل ما يمكنها القيام به، تضايقها تحرشات الإفرنج والبدو، وقلة الطعام، والماء. وكانت العملية بالنسبة لـ(صلاح الدين)، – الذي أدان بنجاحه بالهروب، إلى بعد نظر (القاضي الفاضل)، وولائه – درساً لن ينساه أبداً.

ومع ذلك، فإن هزيمته لم تكن حاسمة، إذ لم تكد تمضي أربعة أشهر حتى كان بمقدوره أن يخرج ثانية على رأس جيش مقتدر، تاركاً خلفه قوات كافية لحراسة أمن (مصر)[١٣٢]. والحملة هذه المرة لم تكن مجرد غارة، وإنما كان لها هدف محدّد، ألا وهو مهاجمة القوات الصليبية المحاصرة لـ(حارم). ومع أن (صلاح الدين) قد أسقط في يده، لأن الحصار قد رُفع، مقابل تعويضٍ ماليّ قدّمته حكومة (حلب)[١٣٣]، فإنه اندفعَ إلى (حمص)، وعسكرَ هُناك، استعداداً

---

١٣٢ فصلت رسالة بعثها عماد الدين الأصفهاني إلى بغداد إجراءات صلاح الدين العسكرية والبحرية للدفاع عن مصر، قبل مغادرته لها في آذار ١١٧٨. البرق، م٣، ٤٥ ب. أما هدف الحملة فكان مهاجمة الصليبيين الذين كانوا يحاصرون حارم، وهو أمر أكده في المصدر نفسه، الورقة ٢٨ب، وفي رسائل أخرى، الأوراق ٤٢ ب، ٤٥ ب. أما كمال الدين، م٣، ص٣٢، طبعة بلوشيه، ص٦٤ فيقول إن حامية حارم بعد الضغط الشديد الذي تعرّضت له استنجدت بصلاح الدين.

١٣٣ قارن William of Tyre ,XXI,٢٥(trans.,II,٤٣٥)

ويشير عماد الدين في خطاب أرسله إلى بغداد (البرق، م٣، الورقة ٤٢ب) إلى هدنة تم عقدها بين حلب والصليبيين، عندما ترامت الأخبار بوصول صلاح الدين إلى بلاد الشام، نتيجة مصالحهم

للنزول إلى ساحة المعركة في أول فرصة. إلاّ أن انسحاب (كونت فلاندر) أعاد تلقائياً العمل بالهدنة مرة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ذلك العام كان مجدباً، حيث شحّتِ الأمطار، مما أورث مجاعة شديدة في (بلاد الشام). ومع ذلك، فإن (صلاح الدين) كان حريصاً على استئناف الجهاد، ولم تفلح كل بلاغة (القاضي الفاضل) لإقناعه بالتريّث ريثما تتحسّن الظروف، فإنه مضى في التأكيد لوزراء الخليفة أنه إذا سار كل شيء على ما يرام ، وإذا كان بالإمكان حشد قوات كافية، فإنه سيهاجم (القدس) في السنة التالية[١٣٤] .

عودة (صلاح الدين) إلى (بلاد الشام):

في آب نقض الإفرنج الهدنة عندما هاجموا (حماة)، لكن الهجوم تم رده من دون صعوبة تذكر. وجيء بالأسرى إلى (صلاح الدين)، الذي أمر بإعدامهم، لنكثهم باليمين. ثم وقع خرق آخر أشد خطورة، عندما بدأ (بلدوين) بتشييد حصن في (مخاضة يعقوب)، بدفع من (الداوية)، في تشرين الأول[١٣٥]. لكن (صلاح الدين) لم يتمكّن من

المشتركة. أما ميخائيل السرياني م٣، ص٣٧٦ فيذكر بأن الملك الصالح قد دفع للأمير مبلغ ٢٥ ألف دينار.

[١٣٤] عماد الدين، البرق، م٣، الورقات ٣٧-٤٠، ٤٦، ٦٣ فما بعدها، وهي تحتوي مقتطفات من مراسلات بين القاضي الفاضل وصلاح الدين، قارن: أبو شامة، م١، ص٢٦٧، م٢، ص٢-٣. وفي الرسالة الأولى، يشير القاضي الفاضل إلى هجوم فرنجي عند الحدود المصرية. أما الخطاب إلى ديوان الخلافة، فقد كتبه عماد الدين، وأورده في البرق، م٣، ص٤٣ أ ب.

[١٣٥] يؤكد أرنول، ص٥٢ قطعياً بأن بلدوين امتنع عن بناء القلعة في وقت الهدنة، وأن صلاح الدين حاول أن يثنيه عن المضي في بنائها. ويذكر ابن أبي طي (أبو شامة، م٢، ص٨) وعماد الدين (البرق،

التدخّل حالاً، نظراً لوضع معقّد نشأ في (دمشق). فقد أهمل أخوه (تورانشاه) كلياً واجباته بوصفه حاكماً[١٣٦]، فضلاً عن دخوله بصورة مريبة في علاقات جيدة مع (الملك الصالح) في (حلب)[١٣٧]. وبالنتيجة فإن السلطان عين ابن أخيه (فروخ شاه) قائداً عسكرياً في (دمشق). أما (تورانشاه)، فقد قال بأنه ينبغي أن يحصل على (بعلبك) إقطاعاً له، لكن (بعلبك) كانت آنذاك بيد (ابن المقدم) حاكم (دمشق) السابق. وبعد سلسلةٍ من الجهود غير المثمرة لإقناع (تورانشاه) بالعدول عن طلبه، أو إغراء (ابن المقدم) بقبول إقطاع آخر، من أجل تجنّب وقوع صدام، وافق (صلاح الدين) على إعطاء (تورانشاه) (بعلبك)، أثناء غيابه في الشمال، لكنه قلص من إمكانية اتخاذ أي إجراء عسكري ضد (ابن المقدم).

وبعد عودته من (حمص) عسكَرَ بكامل قواته - لبضعة أسابيع- عند (بعلبك)، ولكن عندما حلَّ الشتاء تفرّقت القوات، عدا قوة

م٣: أبو شامة، م٢، ص١١) بأن صلاح الدين عرض على بلدوين مبلغ ٦٠ ألف، ومن ثم ١٠٠ ألف قطعة ذهبية، إذا ما تخلى عن المشروع.

[١٣٦] عماد الدين، البرق، م٣، الورقة ٢٥ أ، وقد لخصت في (أبي شامة، م١، ص٢٧٥ حيث أن كلمة "بذاتهم" يجب أن تصحّح إلى "بلذاتهم". "وقد بذل للفرنج ما أمنت به البلاد من مضراتهم، وسلمت به الغلات من غاراتهم، وهو خائض في أمره وانفاذه، غائص في بحر ملاذه، وقد علا شرعه، وخلا ذرعه، وحلا لأبواب اللذات مع اللدات قرعه... واشتغل كل من الأمراء في ثغره، بهزله وجده، وحلوه ومره، وخيره وشره، ونفعه وضره... وبدا للكافر الواصل ضعف المعاقل، وخلوها من الجند القاتل" .

[١٣٧] عماد، البرق، م٣، الورقة ١٢٠ أ. جرى شمس الدولة معه [الملك الصالح] على الوفاء والوفاق، ونهج سبيل الإشفاق.

مراقبة صغيرة. وبالنهاية رضخ (ابن المقدم)، وأقرَّ (صلاح الدين) منح (تورانشاه) (بعلبك). أما (ابن المقدم)، فقد عوض بإقطاعات سخية في الشمال، وتواصل شعور الولاء الذي يربطه بـ(صلاح الدين) دون انقطاع. وعندما توفي (فروخشاه)، ابن أخي (صلاح الدين)، في ١١٨٣، أعيد (ابن المقدم) حاكماً لـ(دمشق). لقد أضعفت هذه الحادثة مؤقتاً مركز (صلاح الدين) الدبلوماسي في مواجهة خصومه؛ لكن في المدى البعيد، كان أسلوبه في معالجة المشكلة، القائم على الحزم، وكذلك على الرغبة في تحقيق التآلف، قد جعله – إلى حدٍّ كبير– بمنأى، في المستقبل، عن اتخاذ تدابيرَ عسكريّة ضد من يشقّ عصا الطاعة من أتباعه[١٣٨].

وبعد أن أزاح عن كاهله هذه المشكلة، أصبح (صلاح الدين) حراً لاستئناف الهجوم في ربيع عام ١١٧٩. فبدأ بإعادة تنظيم القيادات في الشمال، إذ عين (تقي الدين عمر) على (حماة)، و(ناصر الدين بن شيركوه) على (حمص)، من أجل إبقاء (ريموند) صاحب (طرابلس)

---

[١٣٨] تحدّث عماد الدين في البرق، م٣، ص١٠٢ وما بعدها عن هذه الحادثة بالتفصيل، وكذلك ابو شامة، م٢، ص٢، س٥، وابن الأثير، م١١، ص٢٩٨. ووردت باختصار لدى ميخائيل السرياني، م٣، ٣٧٩، الذي ذكر بأن ابن المقدم أرسل هدايا للفرنج، ووعدهم بأنه سيدخل في طاعتهم. إلاّ أن روايته للأحداث، بصورة عامة، غير موثوقة، باستثناء تلك المتعلّقة بشمال الشام. والضرر الحقيقي الذي ألحقته هذه الحادثة بصلاح الدين هو أنها عكست حراجة موقفه في تفسير سلوكه تجاه ابن المقدم، وكذلك تبرير فشله لاستئناف الجهاد في رسائله إلى ديوان الخلافة، فغطى على ذلك بالشكوى من العوائق التي تعترض طريقه من قبل "الملوك والسلاطين"، وتقاعسهم عن مد يد العون له في صراعه ضد الصليبيين (عماد الدين، البرق، الورقة ١٠٣ ب فما بعدها) لم يمكث (تورانشاه) في بعلبك أكثر من عام، حيث طلب في عام ١١٨٠، أو جرى إقناعه، بان يأخذ الإسكندرية عوضاً عنها، ليموت هناك، بعد فترة قصيرة.

في حالة إنذار[١٣٩]. لكن تواصل احتباس المطر لشتاءٍ ثانٍ، ولّد ظروف المجاعة في (بلاد الشام)، وبات جنوده يعانون بشدّة، وأخذوا بالتململ. لكنه اكتفى بالرد: "الله كريم"، وأرسل أكثر قواته تضرراً مرة ثانية إلى (مصر)، وعلى رأسها (تورانشاه)، مطالباً أخاه (العادل) بإرسال ١٥٠٠ مقاتلاً من المعدودين، ومعهم الميرة[١٤٠]. في أوائل نيسان تلقى تقارير عن غارة مرتقبة لـ(بلدوين)، فأرسل (فروخشاه)، على رأس الفرقة الدمشقية، التي تبلغ زهاء ألف مملوك، وأمرهم أن يكمنوا للفرنجة، ويعلموه أولاً بأول بتحركاتهم. لكن (فروخشاه)، على أي حال، وجد نفسه – عن طريق الصدفة – وجهاً لوجه مع الصليبيين، قرب (حصن الشقيف)، وأحرز انتصاراً باهراً، أثلج به قلوب المسلمين، كون كونستابل المملكة: (همفري تورون) بين صفوف القتلى[١٤١].

ولم يلبث (صلاح الدين) أن تحرك صوب (بانياس)، مولياً ثقته عيونه التي بثها لتراقب أي رد فعل من قبل الفرنج، فوضع قوة حراسة

---

[١٣٩] عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٨) كان إلى جانب (تقي الدين) كل من ابن المقدم وسيف الدين ابن المشطوب، وكان قائده الثاني ناصر الدين منكورس بن خمارتكين، الذي حصل على إقطاع أبو قبيس.

[١٤٠] عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٦) نقلاً عن البرق، م٣، ص١١٤، وفي رسالة له إلى الملك العادل (المصدر نفسه، ص١٢١) أشار (صلاح الدين) إلى إشاعة عن مشروع آخر لهجوم سيقوم به الأسطول الصقلي، لكن ذلك ربما مجرد غطاء لتبرير عودة (تورانشاه).

[١٤١] عماد الدين، البرق، ص١١٦–١١٩ (أبو شامة، م٢، ص٦) وكذلك: William of Tyre XXI,٢٧(trans.,٤٣٩).

وعن همفري يقول عماد الدين (الورقة ١١٩أ): لقد كان حتف ذلك العظيم فتحاً مبيناً.

على (تل القاضي)، وفرّق قواته لسوق الأعلاف والمؤن. واندفعت جماعات القبائل العربية، والتي أضناها الجوع، والتي كانت في ركابه، في مناطق (صيدا) و(بيروت)، لحصاد كل ما يمكن العثور عليه من حبوب.

لكن (صلاح الدين) فوجئ بظهور قوة كبيرة تحت قيادة (بلدوين)، فأسرع بحشد جميع ما توافر له من قوات، وحوّل الانتكاسة الأولية إلى نصرٍ لامع[١٤٢]. وكان تاريخ هذه الواقعة اليوم الثاني من السنة الهجرية ٥٧٥، والموافق لـ ١٠ حزيران ١١٧٩. ويذكر (عماد الدين)، الذي تولى بنفسه تسجيل أسماء الأسرى، أن بينهم أكثر من ٢٧٠ من الفرسان، ناهيك عن ذوي المراتب الأدنى.

وأصبح لـ(صلاح الدين) من الإمدادات ما يمكنه القيام بتعرّضٍ عسكريّ كبير، فقد جنّد قواتٍ إضافيةً من التركمان، إلى جانب القوات الإقطاعية للمدن الشامية، فضلاً عن الفرقة المصرية الجديدة. وفي ٢٥ آب هاجم (حصن يعقوب). ومن أجل تثبيط عزيمة الفرنجة، والحيلولة دون تدخلهم لفكّ الحصار، جاءت العملية العسكرية بمنتهى القوة والاندفاع. وتم اقتحام القلعة في اليوم السادس، فأسر ٧٠٠ من المدافعين، وأطلق سراح من كان بها من أسرى المسلمين. وعلى الرغم من حرارة الجو المرتفعة، ورائحة الجثث الكريهة، أبى

---

[١٤٢] الوصف الكامل تجده لدى:

William of Tyre ,XXI,cc.٢٨-٢(II,٤٤٠-٣)

وعماد الدين، البرق، م٣، ص١٢٤-١٣٠ (أبو شامة، م٢، ص٨، وإن بصورة موجزة) لكنه يتفق في الخطوط العامة للأحداث.

(صلاح الدين) أن يغادر المكان، حتى تسوى آخر حجارة القلعة بالأرض تماماً. ولم يقفل عائداً إلى (دمشق)، إلاّ بعد أن نفذ سلسلة من الغارات في أراضي مملكة القدس[١٤٣].

وإذا كانت سلسلة الانتصارات الإسلامية المتعاقبة هذه، قد جعلت الفرنج "يلتحفون رداء الخوف والاضطراب"، فإنها في الوقت نفسهِ ثبتت مطالب (صلاح الدين) بقيادة حركة الجهاد، ليس فقط في أنظار أتباعه، وإنما أيضاً في (بغداد)، حيث وجد دعماً ثابتاً من قبل صاحب المخزن (ظهير الدين بن العطار)[١٤٤]، تلك الشخصية المتنفذة. إن رضا الخلافة كان أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لـ(صلاح الدين) . وهذه الأهمية لم يكن مبعثها صراعه، الذي لم يحسم بعد مع الزنكيين، فحسب، وإنما أيضاً المبادئ التي اعتنقها هو.

ويتضح من بعض الومضات الظرفية، التي تقدّمها المصادر، أن هناك صراعاً مريراً في بلاط الخليفة، بين أنصار الزنكيين، وأنصار

---

[١٤٣] عماد الدين، البرق، م٣، الورقات ١٣٩-١٤٣، وتلخيصه نجده في (أبي شامة، م٢، ص٩)، وهو وافٍ تماماً، لكنه يسقط الإشارة إلى تجنيد التركمان، وهناك أيضاً وليم الصوري في:
William of Tyre ,XXI,٣٠(trans.,٤٤٣- ٤٤٤)
وباستثناء رسائل القاضي الفاضل (أبو شامة، م٢، ص١٣-١٤) لا تقدّم المصادر الأخرى مواداً إضافية. فعن هذه الرسائل استقى أبو شامة نصوصه عن الغارات التي أعقبت الاستيلاء على القلعة (م٢، ص٢٦)، حيث لا نجد لدى (البرق)، في نصه الأصلي، إشارة إليها.

[١٤٤] عماد الدين، البرق، م٣، الأوراق ٤٠ب و٥٨، أبو شامة، م١، ص٢٧٦، ٢٧٨ ظهير الدين هو الذي أقام الخليفة الناصر محل المستضيء في نهاية آذار ١١٨٠، لكن قبض عليه بعد ذلك بخمسة أيام وقتل. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٠٤.

(صلاح الدين)[١٤٥]. وفي كل مرحلة من مراحل دوره، كان يجد نفسه بحاجة إلى أن يرسل الاستعطافات والتوضيحات إلى (بغداد)، لتبرير ما يقوم به من أعمال، أو للاحتجاج بولائه للخلافة وللشريعة، والتماسه تأييد الخليفة ضد خصومه. ومنذ ذلك الوقت تبدى له بأن حظوظه في صعود، ولا سيّما بعد تولي (الناصر لدين الله) الخلافة في آذار ١١٨٠، وإن لم يستسلم الحزب المعارض له، أو يتخلّى عن مواصلة جهوده، حتى بعد الانتصار في (حطين)[١٤٦].

ومع أن (صلاح الدين) كان معاهداً لـ(حلب) و(الموصل)[١٤٧]، فإن الزنكيين وولاتهم لم يبدوا أي استعداد لمد يد العون له لمهاجمة (فلسطين). وقد أظهر له النجاح المتواضع الذي تمكّن من تحقيقه، بأن الصراع مع الصليبيين لا يمكن أن يبلغ غايته المنشودة، بالاعتماد فقط على قوات (دمشق)، وتلك القوات التي يمكن الاستغناء عن دورها في الدفاع عن (مصر)، فإن الـ ٦٠٠٠ مقاتل الذين بإمكانه أن يزجهم دفعة واحدة في الميدان، ليسوا فقط غير كافين للقيام بعمل عسكري حاسم، وإنما يأتي بقاء قوات الأمراء النورية في (حلب)، تحت قيادة الآخرين، خطراً كامنا يهدّد جناحه. وحتى لو تم تأمين ولائهم إلى جانبه، فإن هذا العمل بحد ذاته سيعمّق شعور العداء ضد

---

[١٤٥] عماد الدين، م٣، الورقة ٣٨أ بأن عادة (التقليد)، القائم على إغداق الهدايا الفاخرة على "أعيان العراق وأماثله وأكارمه وأفاضله والعلماء والشعراء والقراء والمتصوفة، إلخ"، أمر لم يتم تجاهله.

[١٤٦] الفتح القسي، تحقيق لندبرك، ص٩٦-٩٧.

[١٤٧] بعد معركة مرج عيون، ومرة أخرى بعد حملة تقي الدين عمر ضد قلج أرسلان، أرسلت رسائل إلى مجاهد الدين قايماز في الموصل: عماد الدين، البرق، م٣، الأوراق ١٣٢-١٣٥، ١٣٨-١٣٩.

الزنكيين في (الموصل)، ممن يستطيعون بقواتهم التي تبلغ ٦٠٠٠ مقاتل أن يشلّوا حركته. والخلاصة التي لا مناص منها، هي أنه لا يستطيع حشد قوات (بلاد الشام) و(مصر) ضد الصليبيين، طالما أن هناك خطراً يهدِّد جناحه ومؤخرة جيشه من جهة (الموصل)، لذا لا بُدَّ من انضواء قوات الموصل تحت رايته في جهاده الصليبيين.

وبوصوله إلى هذه النتيجة بات عليه تحقيقها، واتضح له أن ذلك لا يمكن أن يتحقّق دون صدامٍ عسكري. لكنه كان متردداً في استخدام السلاح ضد أولئك الذين سيُصبحون حلفاء المستقبل، فالإقناع والدبلوماسية يمكن أن يكونا لها نتائج أمضى من العمل العسكري، وهو يعرف بأنه يمتلك امتيازاً يجعله يتفوّق على خصومه، فقد كان قد وطّد في أعين كل المسلمين دعواه بالخلافة الروحية لـ(نور الدين)، وأن القوى الأخلاقية، التي بعث فيها (نور الدين) الروح، هي التي اصطفت إلى جانبه[١٤٨]. ومع أن مصالح الزنكيين تدعمها فقط الولاءات الضيّقة، والوطنية المحلية، والتقليد العسكري، فإن (صلاح

---

[١٤٨] أبرز الأمثلة على هذا التحول المتزايد لكبار علماء الدين، والشخصيات المتنفذة، إلى صف صلاح الدين، انضمام أبرز قاضيين في ذلك العصر إليه، وهما: ضياء الدين الشهرزوري، وشرف الدين بن أبي عصرون. وكان انضمام ابن أبي عصرون أولاً، ثم جاء انضمام الشهرزوري إليه عام ١١٧٥ أو ١١٧٦ ليتولّى قضاء دمشق، وهو أمر أشار إليه القاضي الفاضل في رسالة لاحقة إلى صلاح الدين (البرق، م٣، ١٠٧ب) بأنه قد أضعف بدرجة كبيرة من كفة خصومه. قارن كذلك ما ذكره ابن جبير عن عموم المصلين في مكة عام ١١٨٣، وكيف أنه عندما ذكر اسم صلاح الدين صاح الجميع صيحة واحدة "آمين" (طبعة G.M.S.,٩٧,٣-٤). ومجرى المفاوضات مع شيخ الشيوخ، كما سيرد لاحقاً.

الدين) قد اكتسب تعاطف تيارٍ قوي ومؤثر، ليس في (حلب) فحسب، وإنما في (الموصل) كذلك[١٤٩].

إن الخصومات والاتصالات السرية والعلنية بين الزنكيين والفرنج قد نالت من قضيتهم، وبدا كأن مبدأ الحقوق الشرعية، الذي تبناه (صلاح الدين) بحماسٍ كبير، قد انقلب لصالحه. كان عليه فقط أن يكرر الأساليب التي سبق أن تبناها (نور الدين) نفسه تجاه دمشق: إضعاف الحزب المعارض، من خلال تشجيع الانشقاقات داخله، ومن خلال تنظيم المظاهرات العسكرية في الأوقات المناسبة، وفي الوقت نفسه الالتزام الحرفي بشروط ما جرى التعاهد عليه، وكذلك بالحقوق السيادية للخلافة.

---

[١٤٩] هذه الحقيقة كانت واضحة من الاستسلام المطلق لهذه المدن، لكن التفاصيل يلفّها الغموض التام، فمن خلال أفعاله اللاحقة، يبدو أن زعيم الجماعة الموالية لصلاح الدين في حلب، هو حسام الدين طمان، أما في الموصل (حيث أكّد ابن الأثير نفسُه وجود جماعة موالية لصلاح الدين بين أمرائها، انظر ص١٣، هامش٢ الأعلى) بدا أن صلاح الدين كان يسعى أولاً لكسب دعم مجاهد الدين قايماز. ومع أن قايماز هو من نظم الدفاع عن الموصل في مواجهة صلاح الدين في عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢، إلا أن عزله من قبل عز الدين مسعود في السنة التالية، قد تبعه مباشرة تسليم إقطاعيه في أربل وجزيرة ابن عمر إلى صلاح الدين (ابن الأثير، م١١، ص٣٢٩، بهاء الدين بن شداد، طبعة شولتنس، ص٥٧- القاهرة، ٥٣) إلا أن الميزة الدقيقة لهاتين الحادثتين لا يمكن إدراكها. ووفقاً لابن الأثير، م١١، ص٢٩٧) بأن قايماز قد وصل إلى السلطة بعد إزاحة الوزير الشاب جلال الدين ابن جمال الدين، الذي كان يشك بأنه يتمتّع بعلاقات صداقة مع صلاح الدين.

(صلاح الدين) والزنكيين:

إن تاريخ (صلاح الدين) خلال السنوات الست التالية (أي بين ١١٧٩ و١١٨٥)، هو سجل لتقدمه المطَّرد نحو هذه الغاية. وإذا كان لا يصعب إيراد القصة المعقّدة للحملات والمفاوضات مع الأمراء الصغار في إقليم الجزيرة، أو مع زنكيي الموصل، وكذلك مع مبعوثي دار الخلافة، فإن ذلك يتطلب قَدْراً لا يُستهان به من التفاصيل. ويلتحم بهذا الخيط خيطان آخران، هما: الحرب المتواصلة ضد مملكة القدس، وكذلك مشكلات الإدارة الداخلية، والعلاقات بين أقاربه وولاته. ولأجل التوضيح سوف نتعامل مع كل منها على حِدة.

فأثناء حملات عام ١١٧٩، قام (قلج أرسلان) فجأة بالمطالبة بضم (رعبان)، التي كان (صلاح الدين) قد استولى عليها عام ١١٧٦ من (الصالح)، بينما كان قد سبق له أن أرسل في العام السابق مبعوثاً لتأكيد صداقته لـ(صلاح الدين)[١٥٠]. فندب (صلاح الدين) (تقي الدين)، الذي كان الحصن تحت حكمه، للدفاع عنه. وقد نجح،

---

[١٥٠] عماد الدين، الرسالة أوردها في البرق، م٣، الورقة ١٢٣أ. وأن المبعوث قد أمر بإعلام صلاح الدين بأن قلج ارسلان قد تقدم إلى ملاطية "ليدبر أعمالها"، وهو يتوقع من صلاح الدين إما أن يبقى على الحياد، أو ينظم إليه. وكان جواب صلاح الدين واضحاً "هيهات أن نترك المسلمين يقصد بعضهم بعضاً، أو نرى أحداً منهم إلاّ في سبيل الله، وُدّاً أو بُغضاً".

بحيلة استراتيجية، من دحر قوات (قلج أرسلان) بقوةٍ صغيرة لا تتجاوز الألف فارس[١٥١].

وفي بداية عام ١١٨٠، نشب خلاف في قضية داخلية بين السلطان السلجوقي، والأمير الأرتقي (نور الدين)، صاحب (حصن كيفا). ومع أن الأخير كان تابعاً لوالي الموصل، فإنه توجّه بالتماسه إلى (صلاح الدين)، ربما استناداً إلى معاهدة عام ١١٧٦. وتلك كانت تماماً الفرصة التي ينتظرها (صلاح الدين)؛ فبهدف فرض سيطرته على (الموصل)، فإن أول خطوة وأهمها هي تجريد صاحب الموصل من أتباعه الأقوياء في (بلاد الجزيرة) و(ديار بكر)، ممن يزودوه بأكثر من نصف مجموع قوات جيش الموصل، وأقوى هؤلاء: الأميران الأرتقيان في (حصن كيفا) و(ماردين)، ممن لم يخضعوا فعلياً لهيمنة الزنكيين. وكان قد سبق لهما الالتجاء في عام ١١٧٨ إلى (صلاح الدين) للحصول على مساعدته، في مواجهة المخططات العدائية للسلطان السلجوقي[١٥٢]. وأياً كانت سلامة موقفهما في القضية المطروحة، فقد كان (صلاح الدين) مجبراً على اغتنام الفرصة،

---

[١٥١] أبو شامة، م٢، ص٩، ومن عماد الدين، البرق، م٣، الأوراق، ١٣٧ب –١٣٨أ وكذلك ابن أبي طي. ويجعل الأول قوة قلج أرسلان بنحو ٢٠ ألف (وفي رسالة إلى مجاهد الدين في البرق، الورقة ١٣٩أ تزيد الرقم إلى ٣٠ ألف) بينما يقدم ابن أبي طي رقماً أكثر معقولية، ومقداره ثلاثة آلاف فارس. ابن الأثير، م١١، ص٣٠٥، فإنه ينقل عن عماد الدين حتى أعداد الجيش، لكنه يبدأها بكلمة "يقال".

[١٥٢] عماد الدين، البرق، م٣، الورقة ١٢٣أ. "فإن ملوك ديار بكر إلينا ملتجون، ولنا مرتجون، وبحبلنا معتصمون... ومن سلطان الروم مستشعرون، وبسلطاننا مستنصرون... ولبّينا نداهم، وقوينا رجاهم".

بهدف كسبهم لصفه، ولكي يظهر بأنه السيد الحقيقي على (ديار بكر). وقد وقع هدنة مع (بلدوين) في الربيع[١٥٣]، مما تركه حراً لقيادة جيشه إلى حدود الممتلكات السلجوقية، ليس للقيام بعملية عسكرية، قدر إجبار (قلج أرسلان) على التوقّف عن هذه الاعتداءات، والقبول بوساطته[١٥٤].

وقد حقّقتِ الخطة نجاحاً كبيراً، أكبر مما كان يُتوقع. فقد اجتمع السلطانان (صلاح الدين) و(قلج أرسلان) عند نهر (جوك سو) في حزيران. وهناك، كما يبدو، وقّعا تحالفاً، بات يعني الكثير لـ(صلاح الدين) في قابل أيامه. وأول ثمرات هذا الصلح كان حملة قصيرة وناجحة ضد (روبين)، صاحب (أرمينيا الصغرى)، بذريعة معاملته السيئة للقبائل التركمانية في أراضيه.

ويذكر (بهاء الدين) أن صلحاً عاماً تمّ توقيعه في نهاية هذه الحملة، بمبادرة من (قلج أرسلان)، بين (صلاح الدين)، والسلطان السلجوقي، وأمراء الموصل، وديار بكر، إثر التقائهم عند (نهر سنجة) قرب (سميساط)، وذلك في الثاني من تشرين الأول عام ١١٨٠.

---

[١٥٣] يؤكد بهاء الدين (طبعة شولتنس، ص٤٧ = طبعة القاهرة، ص٤٣) بأن عسكر حلب قد رافق صلاح الدين في حملته، لكن روايته قابلة للشك، من عدة اعتبارات، فالهدنة التي ذكرها عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص١٦) وابن الأثير، م١١، ص٣٠٧، أما وليم الصوري فقال إن شروط المعاهدة مذلة لنا William of Tyre ,XXI,١trans.,II,٤٤٧

[١٥٤] يؤكد ميخائيل السرياني، م٣، ص٣٨٨ بأنه عند تقدّم صلاح الدين، قام قلج أرسلان بتخريب أسوار كيسون، ونقل سكانها، وأن التقاء صلاح الدين ونور الدين عند نهر سنجة، قد أسفر عن توقيع صلح، بعد وساطة مبعوث من قلج أرسلان، اسمه حسن.

لكن لا يوجد ما يؤكّد ذلك في بقية المصادر. بل من المؤكّد أن الأدلة تقفُ على الضد من هذه الرواية.

وفي ٢٩ حزيران توفي (سيف الدين)، صاحب (الموصل)، وحلّ محلّه أخوه (عز الدين مسعود)، بعد تجاهله للوريث الأصلي (سنجر شاه بن سيف الدين). وبعد توليه الحكم، بعث إلى (صلاح الدين) يطلب منه موافقته على استمرار حيازة صاحب (الموصل) على المدن الجزرية، التي كان (سيف الدين) قد استولى عليها بعد وفاة (نور الدين)، عام ١١٧٤. فكان جواب (صلاح الدين) الرفض رفضاً قاطِعاً، فهذه المدن هي جزءٌ من ممتلكات (صلاح الدين)، وفقاً للتقليد الخليفي، وأنه تركها بأيدي (سيف الدين)، فقط في مقابل تعهده بمدّ (صلاح الدين) بالقوات. وقد أرسل (صلاح الدين)، في الوقت نفسه، رسالةً إلى (بغداد)، يوضّح فيها بأنه لا يستطيع الاعتماد إلى ما لا نهاية على القوات المصرية، في حملاته في (بلاد الشام)، وأنه بحاجةٍ إلى جيوش هذه المناطق، وطلب تأكيد التقليد السابق، فجاءهُ ما طلب[١٥٥].

وجاءت وفاة (الملك الصالح) في (حلب)، في ٤ كانون الأول ١١٨١، لتعمق الهوة بين (الموصل) و(صلاح الدين). فقد كان (صلاح الدين) آنذاك في (مصر)، وعندما ترامت إليه الأخبار بمرض (الصالح)، أرسل أوامر مستعجلة إلى (تقي الدين) في (حماة)، و(فروخشاه) في (دمشق)، للاستيلاء على غرب منطقة الجزيرة، ومنع

---

[١٥٥] عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص١٧).

جيش الموصل من عبور الفرات. لكن (فروخشاه) كان منشغلاً بمجابهة مشروع (رينو) غزو الجزيرة العربية، انطلاقاً من (الكرك)، فيما كان (تقي الدين) عاجزاً عن منع (عز الدين) من دخول (حلب)[١٥٦].

إن الاضطراب الذي خلفّه وفاة (الصالح) لم ينتهِ، إلاّ بتعيين (عز الدين) لأخيه (عماد الدين) حاكماً على المدينة، بعد مبادلته إياها بـ(سنجار). وعاد إلى (الموصل)، بعد أن أفرغ محتويات خزائنها وأسلحتها[١٥٧]. ويظهر قلق (صلاح الدين) الشديد من الوضع، في سلسلة متعاقبة من الرسائل، موجهة إلى ديوان الخلافة، تضع المقارنة بين سلوك أمير الموصل، في الاستيلاء على الولاية التي كانت قد أعطيت لـ(صلاح الدين)، بينما قوات (صلاح الدين) منهمكة في الدفاع عن مدينة الرسول من الكفار، ومشتكياً بأن النزاع بين الأمراء المسلمين يعيق الجهاد، وأعاد التأكيد على مطالبته بـ(حلب)، على أساس التقليد الذي منحته إياه الخلافة، وأعلن أنه "إن اقتضتِ الأوامرُ الشريفة أن يوعز للمذكور في (حلب) بتقليد، فالأولى أن يقلد

---

[١٥٦] رسائل أوردها أبو شامة، م٢، ص ٢٢-٢٣، ويشير ابن الأثير، م١١، ص٣١٢، ٣١٥ إلى وقوع تمردات في حماة، وأن تقي الدين قد أجبر على الهرب إلى حماة من منبج، وفي غياب ما يؤكّد ذلك في المصادر الأخرى، لا بُدّ من التعامل مع هذا القول بالشك.

[١٥٧] أبو شامة، م٢، ص٢٢ (ينقل عن بهاء الدين، شولتنس، ص٤٨، القاهرة، ص٤٤-٤٥). وقد أضاف بهاء الدين (الذي كان آنذاك ما يزال قاضياً في الموصل) بأن قواته رفضت توجيه الحملات ضد صلاح الدين، وهذا ما سيمليه استيلاءه على حلب، وإن مدبر أمر دولته: مجاهد الدين قايماز "لم يعتد بمقاساة أمراء الشام". وعن اضطراب الأوضاع في حلب، قبل تولّي عماد الدين الحكم فيها، انظر: Claude Cahen ,La Syria du Nord a L époque des croisades ,Paris ,١٩٤٠ ,p.٤٢١

الجميع"[١٥٨]. إن النبرة الملحة لهذه الرسائل، تفسرها جزئياً ضرورة الرد بمستوى مماثل على ما يقوم به أتباع (الموصل) في (بغداد)، وإذا كانت العناصر الدعائية فيها لا يمكن فصلها عن الحماسة الدينية، فمما لا شكّ فيه أن (صلاح الدين) كان فعلاً قلقاً من حالة الجمود التي ستعقب عمليّة توحد (الموصل) و(حلب).

وفي أيار ١١٨٢ غادر (صلاح الدين) (القاهرة)، مُصطحباً معه نصف الجيش النظامي، الذي أعيد ترتيبه مؤخراً، ويبلغ نحو ٥٠٠٠ مقاتل[١٥٩]. وانضمَّ إليه نوابه في (بلاد الشام). وبعد محاولة فاشلة للقيام بهجوم مباغت على (بيروت)، عن طريق البر والبحر، زحف إلى (حلب)، مُتسلِّحاً بمنشور الخلافة[١٦٠]. لكنه، وقبل أن يشرع

---

[١٥٨] رسائل أوردها أبو شامة، م٢، ص٢٣.

[١٥٩] عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٢٧) الصفحات الخمس الأولى من المجلد الخامس من كتاب البرق (مخطوطة البودليان، تحت رقم Marsh,٤٢٥) مفقودة. ويحفظ لنا المقريزي في الخطط، م١، ص٨٦ (طبعة فييت، م٢، ق١، ص١٧) رواية عن مياومات الفاضل عن إعادة تنظيم عسكر صلاح الدين المصري، في رجب ٥٧٧ (تشرين الثاني ١١٨١) ويحدّد العدد الكلي بـ١١١ أمير، ٦٩٧٦ طواشي أو مملوك نظامي، ١٥٥٣ قرغلامي، أي المجموع هو ٨٦٤٠، باستثناء (المحلولين، أي: المشطوبين)، والعربان، ومن تبقى من الوحدات الفاطمية. وبالاستناد إلى تعليق ناقص لابن مماتي (ص٣٦٩) فإن دفع الرواتب لكل فئة من الجيش قد قسم حسب العبرة، والمال يحسب بالدينار الجندي.

[١٦٠] أكّد ابن الأثير أن الهجوم على حلب كان خدعة، ويعطي مصداقية لقوله هذا، يجعل دعوة كوكبري لصلاح الدين عند حصاره لبيروت. إلاّ أن عماد الدين يوضّح بصورةٍ قاطعة أن نية صلاح الدين كانت متجهة لمهاجمة حلب، ومن ثم تحدث إلى مبعوث كوكبري، الذي وصل فجأة، ليقترح عليه تغيير الخطة بعد أن عسكرَ أمام حلب، ثم تعزز ذلك بوصول كوكبري نفسه. وحقيقة أن صلاح الدين كان يمتلك تقليداً بحلب، يؤكدها رسالة للقاضي الفاضل موجهة إلى ديوان الخلافة، بعد

بمهاجمتها، زاره حاكم (حران): (مظفر الدين كوكبري)، ومعه دعوة عاجلة لعبور (الفرات)، مؤكّداً له أنه سيلقى الترحيب من جميع الأطراف[١٦١]. وبالنتيجة، وبحكم كونه – استناداً إلى مرسوم الخليفة – الحاكم الشرعي لولايات الفرات والخابور، قام (صلاح الدين) بعبور (الفرات) في نهاية شهر أيلول، وتمكّن من الاستيلاء على ممتلكات (نور الدين) السابقة في (إقليم الجزيرة)، دون أن يواجه إلاّ مقاومة متقطعة[١٦٢]. وقد حاول (عز الدين) النزول إلى ميدان المواجهة

الاستيلاء على حلب، تبدأ بعبارة "صدرت هذه الخدمة، وقد تسلم مدينة حلب، ممتثلاً للأمر الوارد عليه، واقفاً حيث وقف به الاختيار له".

[١٦١] عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق، ٨ب-١٩أ. ويعزو ميخائيل السرياني، م٣، ٣٨٩ كذلك المبادرة إلى كوكبري، ويشير إلى تشتت قوات صاحب الموصل وأتباعه، مع زحف جيش صلاح الدين. أما ابن أبي طي (أبو شامة، م٢، ص٣٠) فيؤكّد أن كوكبري (الذي كان سابقاً قائد جيوش الموصل) وأصبح شحنة حلب، وأراد أن يستولي على القلعة، أعطي حران من قبل عز الدين، على إثر مبادلة الأخير المدينة مع أخيه عماد الدين. بينما يؤكّد كمال الدين (طبعة بلوشيه، ص٧٢-٧٣) أن عماد الدين نفسه هو الذي اقترح على صلاح الدين ضرورة الاستيلاء على سنجار، وإعادتها له في مقابل حلب. ولكن إذا كان عماد الدين قد التمسَ قبل عدة سنوات نجدة صلاح الدين إياه، عندما كان سيف الدين يحاصره في سنجار، فلا توجد إشارة إلى ذلك، في الرواية المفصلة التي قدّمها عماد الدين عن الحادثة، والتي هي على الأغلب تخمينات للمفاوضات التي جرت لتسليم حلب، ولعلّ ذلك على أي حال حياً في ذهن صلاح الدين.

[١٦٢] عبر صلاح الدين الفرات عند البيرة، والتي كان حاكمها قد استنجد به، في تاريخ سابق من ذلك العام، لينقذه من اعتداءات أمير ماردين الأرتقي، بتحريض من عز الدين (ابن الأثير، م١١، ص٣١٣-٣١٤). وقد استسلمت سروج، وأعيد تأكيد حاكمها ابن مالك في منصبه. أما حاكم الرها الزعفراني، فقد قرّر المقاومة، لكنه استسلم بعد ثلاثة أيام من الحصار، ثم أعطيت المدينة لكوكبري. أمّا رواية ابن الأثير (المصدر نفسه، ص٣١٨) بأن عز الدين قد أرسل قوات للدفاع عن الرها، فلا تدعمه المصادر الأخرى، لكن حقيقة الحصار (لم يذكره أبو شامة) بحكم وروده في البرق، م٥، الورقة ٢٠أ. وكانت الرقة بيد خصم صلاح الدين القديم: ينال المنبجي، الذي انضم إلى عز الدين، وقد أعطيت المدينة إلى حاكم الرها السابق: الزعفراني، أما ولاية الخابور فسرعان ما تم التغلب

معه، لكن أسقط في يده نتيجة معارضة قادته، وإعلان أكبر أتباعه، وهو (نور الدين بن قره أرسلان الأرتقي)، أمير (حصن كيفا)، ولاءه لـ(صلاح الدين)[١٦٣]. والنتيجة الوحيدة لهذا الفعل: تزويد (صلاح الدين) بمبرّر سليم للتقدُّم صوب (الموصل). وهو فعل برّره في رسالته المطوّلة التي وجّهها إلى (بغداد)، التي اتهمّ فيها حكام (الموصل) بأنهم دفعوا الأموال للفرنجة ليقوموا بمهاجمته، ولاضطهادهم لأتباعهم، وأخيراً التماس عون عدوّ الخلافة اللدود، (أتابك إيران) السلجوقي[١٦٤]. وقد أكّدتِ المصادر الموصلية نفسها الاتهام الأخير،

عليها. وأعطيت القائد الكوردي (جمال الدين خوشترين) الذي كان قد ميّز نفسه، استناداً إلى رواية ابن أبي طي (أبو شامة، م١، ص١٦٧ الأسفل)، عندما أسر بلدوين بن بلدوين في معركة مرج عيون، (عماد الدين، البرق)، وأن قلعة نصيبين قد امتنعت لبضعة أيام، وجعل عليها قائداً كورديّاً آخر، هو حسام الدين أبو الهيجا، لكنه عزل عنها فيما بعد بسبب سلوكه العدواني (عماد الدين. أبو شامة، م٢، ص٣٣) وبكرم صلاح الدين المعتاد برهنت هذه الحملة بأنها ناجحة إلى حدٍّ أرهق فعلاً موارد صلاح الدين المالية، فاجبر على أن يوجه نداءات عاجلة إلى فروخشاه والعادل طلباً للمال، "فكلما فتحت البلاد أبوابها فتحتِ المطامع أفواهها، واستوعبت الخزائن إخراجاً وإنفاقاً، واستنفدت الحواصل إعطاءً وإطلاقاً، وقدمنا على بحر لا يسدّه إلاّ بحر" (أبو شامة، م٢، ص٣٠) ومن عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ١٩-٢٢، الأوراق غير متسلسلة. إن الحملة بمجملها، ابتداءً من انضمام نور الدين بن قره أرسلان، والتماس حاكم الموصل لنجدة أمراء اذربيجان وشمال إيران، تعيد إلى الأذهان بصورةٍ مدهشة حملة نور الدين ضد الموصل في عام ٥٦٦ /١١٧٠، ابن الأثير، م١١، ص٢٣٨-٢٣٩.

[١٦٣] يذكر عماد الدين، البرق، م٥، ١٩أ (أبو شامة، م٢، ص٣٢) أن مبعوث الأمير نور الدين قد وصل صلاح الدين عند البيرة، وقد تعهّد بالنيابة عنه بموالاة صلاح الدين في مقابل وعده بأن يستولي على آمد، ويعطيه إياها.

[١٦٤] أبو شامة، م٢، ٣١-٣٢. الأتابك هو جهان بهلوان بن ايلدكز، الذي عدّ نفسه وصياً على السلطان السلجوقي طغرل بن أرسلانشاه. وعن علاقة هؤلاء الأمراء بالخلافة انظر:

فـ(عزّ الدين) – ونتيجة يأسه – اندفع لالتماس العون من جميع الاتجاهات، فأرسل (بهاءَ الدين) نفسَهُ إلى (بغداد)، ليطلب عون الخلافة ضد (صلاح الدين)[١٦٥]. واستجابةً لهذا الطلب، أرسل الخليفة مبعوثاً للتوسّط بين الأطراف، وطالتِ المفاوضاتُ شهراً من الزمن، في الوقت الذي كان (تقي الدين) ابن أخي (صلاح الدين)، و(تاج الملوك) أخوه، يُواصلان محاصرة المدينة[١٦٦].

لا بُدّ من التأكيد على أن محور هذه المفاوضات، لم يكن بحال ضمّ (الموصل) تحت السيادة الفعلية لـ(صلاح الدين)، وإنما حول الشروط التي تجعل حاكمَ (الموصل) يعلن وقوفه إلى جانب (صلاح الدين)، وإرساله لقواته للمشاركة في جهاد الفرنج. وفي اللقاء الأول،

Barthold , Turkestan Down to the Mongol Invasion ,repr. London ,١٩٥٨ ,٣٤٦-٣٦٧ ;C.E. Bosworth,"The Iranian World (A.D. ١٠٠٠-١٢١٧) in The Cambridge History of Islam ,V,١٦٩-١٧٠.

[١٦٥] يضيف بهاء الدين (طبعة شولتنس، ص٥٠ – طبعة القاهرة، ص٤٦) بأن جهان بهلوان والحق على تقديم المساعدة مشترطا شرطا "كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان: أي الاعتراف بسيادة السلطان طُغْرُل.

[١٦٦] يقول عماد الدين (البرق، م٥، الورقة ١٥أ) وكذلك في الرسالة التي بعثها إلى ديوان الخلافة، المصدر نفسه، ٢٣ أ) بأن صلاح الدين استجاب لالتماس شيخ الشيوخ، فأوقف العمليات العسكرية خلال فترة المفاوضات، لكن ذلك لا يفترض بأن الحصار قد تمّ فكه عن المدينة. فقد عسكر قبالة الموصل في ١١ رجب (١٠ تشرين الأول)، وغادر المدينة في ١٢ شعبان (١١ كانون الثاني)، وشيخ الشيوخ هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن أحمد النيسابوري، ابن العالم الشافعي الشهير أبو سعيد بن أبي صالح. انظر: السبكي، طبقات الشافعية، م٤، ص٢٠٤. وقد كان صلاح الدين يتبادل معه المراسلات لسنواتٍ مضت، وهناك رسالة موجهة له تعود إلى عام ٥٧٥ (عماد الدين، البرق، م٣، ١٣٦أ-١٣٧أ) يتحدّث فيها عن إنجازات الأسطول المصري في البحر الأحمر، وفي بدايتها اعتذار عن الانقطاع عن المراسلة.

كان هدف حاكم (الموصل) الرئيس، هو الاحتفاظ بسيادته على (حلب). ومع أن (صلاح الدين) كان توّاقاً للوصول إلى اتفاق، وكان ميّالاً للموافقة على أيِّ شروطٍ لا يدخل فيها هذا الأمر، فقد رفض المصادقة على هذه المطالب. وبناءً على شفاعةٍ عاجلة من شيخ الشيوخ، وافق (صلاح الدين) على الانسحاب من (الموصل)، لكنه رفض مواصلة التفاوض[١٦٧]. ويبدو أن موافقته على التفاوض مع صاحب (الموصل)، قد أضعفت بصورة كبيرة من ثقة أتباعه الجدُد، في (الجزيرة)، به. وبهدف استعادة هذه الثقة، أعلن لديوان الخلافة عزمه أن لا يُغادر الإقليم، حتى يستكمل فتوحاته فيه[١٦٨].

بدأ (صلاح الدين) بمحاصرة (سنجار)، التي كانت بيد أخي (عز الدين مسعود)، وساعده في ذلك (نور الدين)، صاحب (حصن كيفا). وقد استسلمت المدينة لشروطه بعد ١٥ يوماً من الحصار، وذلك في ٣٠ كانون الأول، وانسحبت حاميتها إلى (الموصل)[١٦٩]. وبعد أن

---

[١٦٧] اطنب عماد الدين الأصفهاني في وصف وقائع هذه المفاوضات، بوصفه أحد المفاوضين (البرق، م٥، الورقات ١١-١٢ ،١٥-١٦). وحسب وصفه فإن شيخ الشيوخ بعد رفض توقيع الاتفاق، قرّر مغادرة الموصل مغضباً، بسبب ازدواجية السلطات الموصلية في مواقفها، وأنه عاد إلى صلاح الدين "واستوفى حديث ما أبصره وسمعه من الانقسام". وتوجد هناك إشارة في المصادر إلى الدور الذي لعبه مبعوثي قزل أرسلان صاحب أذربيجان، وشاه أرمن صاحب خلاط، وهم أيضاً قد عرضوا التوسط (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٢٦أ، ابن الأثير، م١١، ص٣٢١) إن رفض صلاح الدين استئناف المفاوضات ورد في رسالةٍ لاحقة إلى شيخ الشيوخ (عماد الدين، البرق، الورقة ٣٣أ).

[١٦٨] عماد الدين، البرق، م٥، الورقات ١٢أب، وخطاب كتبه عماد الدين إلى ديوان الخلافة، المصدر نفسه، ٢٣ب-٢٤أ.

[١٦٩] أرسلت قوات نجدة من الموصل إلى سنجار، لكنها بُوغتت على يد تقي الدين في أرنجان، فأعيدت إلى الموصل بعد تجريدها من تجهيزاتها (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ١٧أ). وأن شاه أرمن حاول

استسلم الأمير الأرتقي (بهرام شاه)، صاحب مدينة (دارا)، قام (صلاح الدين) بتفريق قواته، وذهب إلى (حران)، لقضاء فصل الشتاء، ومعه فرقة حرسه، وذلك في نهاية شباط ١١٨٣. لكن لم يكن في نيته أن يرخي الضغط على (عز الدين)، كما يظهر من سيل الرسائل الجارف الموجّه إلى كبار الوزراء في (بغداد)، والطلبات المتكرّرة للتقليد بالسيادة على (الموصل)[١٧٠]. ومع أنه لم ينل مطلبه، إلا أنه أجيب على طلب آخر، يتمثل بالتقليد على (آمد)[١٧١]. وفي شهر نيسان قام (عز الدين) بالمحاولة الأخيرة، لتحشيد من تبقى من حلفائه[١٧٢]، فما

أن يتشفّع مرة أخرى لسنجار، لكن صلاح الدين رفض قبول طلبه (المصدر نفسه، الورقة ٥٠ب). وقد نسب ابن الأثير الاستيلاء على سنجار إلى خيانة أحد الأمراء الكورد، الذي فتح الأبواب ليلاً وأدخل المحاصرين. ويعزّز هذه الرواية إلى حدّ ما ما يترتب على نص عماد الدين، البرق، م٥، ٢٧ب) وترد أيضاً لدى أبي شامة. أما قول لين بول في كتابه صلاح الدين (Saladin,London,١٨٩٨,١٧١) بأن سنجار تعرّضت للنهب، فلا يدعمه أي من المصادر الأولية. وقد أقطع صلاح الدين سنجار لسعد الدين مسعود بن معين الدين أنر، أمير دمشق الأسبق، وترك معه مجموعة من ضباطه (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٣١أ). وقول بهاء الدين (طبعة شولتنس، ص ٥٠= طبعة القاهرة، ص٦٤) بأن دمشق قد أعطيت لتقي الدين، غير صحيح، فقد ورد المرسوم الأصلي لتعيين سعد الدين في كتاب البرق. ومن الواضح أن صلاح الدين لم يعطها لأي من أقاربه أو كبار أتباعه، لأنه كان يرغب أن يبقيها لعماد الدين صاحب حلب، من أجل مقايضتها بها (انظر: ص٣١، هـ٢)، وهناك جانب مهم في رواية عماد الدين عن حصار المدينة، يتمثل بمقارنته بين ضبط والتزام قوات صلاح الدين، مقارنة بالقوات الكوردية في الجيش الأرتقي (١٧ ب).

[١٧٠] رسائل من القاضي الفاضل وعماد الدين إلى ديوان الخلافة (البرق، م٥، الأوراق ٢٣-٢٤، ٣٤-٣٦) وإلى شيخ الشيوخ (٣٢-٣٣).

[١٧١] رسالة كتبها القاضي الفاضل، عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ٣٥ب-٥٤أ (أبو شامة، م٢، ص٤٠، م٢، ص٦-٧

[١٧٢] اجتمعت الجيوش في خرزم (قرب ماردين) وهي جيوش الموصل وشاه أرمن سقمان صاحب خلاط، وقطب الدين ايلغازي بن ألبي صاحب ماردين، ودولتشاه صاحب ارزن وبدليس، وبعض

كان من (صلاح الدين) إلا أن استدعى (تقي الدين) من (حماة)، وبمجرد اقترابه انفرط عقد التحالف. ثم قام (صلاح الدين)، دون أن ينتظر بقية قواته، بفرض الحصار على (قلعة آمد) المنيعة جداً، والتي تعد أمنع قلعة في (ديار بكر) كلها، تبعاً لوعد قطعه لـ(نور الدين بن قرا أرسلان). وكان استسلامها، في غضون ثلاثة أسابيع، تثبيتاً نهائياً لكرمه الذي لا يوصف، سواء تجاه حاكمها المهزوم، أو تجاه (نور الدين)، الذي سلمه القلعة بكل نفائسها الهائلة[١٧٣]، دون أن تمتد يده الى شيء منها. وهذا هو برهان للجميع، دائماً وأبداً، ببطلان كل ما أشاعه عنه أعداؤه من تهم الطمع والأنانية[١٧٤].

قرات من حلب" عماد الدين، البرق، م٥، ٥٠-٥٢ (أبوشامة، م ٢، ص٣٨). رسالة للقاضي الفاضل، عماد الدين، البرق، م٥، الورقة٥٣، ابن الأثير، م١١، ص٣٢٢.

[١٧٣] لخص أبو شامة بصورة وافية شروط تحليف نور الدين على تولي المدينة (م٢، ص٤١)، ووردت كاملة في (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٧٣أ) وهي أن "يظهر بها العدل، ويقمع الجور، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان في معاداة الأعداء، ومصافاة الخلان، في كل وقت وزمان، وأنه متى استمده من أمد لقتال الفرنج وجده يقظان، وإليه عطشان"(٢) وصف عماد الدين الحادثة بجملها بالتفصيل بأسلوبه الملحمي في البرق، م٥، الأوراق ٤٩-٦٥، وهذا الوصف تحفة أدبية لم يستطع بحال تلخيص أبو شامة أن ينقلها (أبو شامة، م٢، ص٣٩-٤٠). أما ابن الأثير، م١١، ص٣٢٤-٣٢٥ فينقل عن عماد الدين، لكن محاولته تفسير سقوط المدينة بحماقة وشح حاكمها، يتناقض تماماً مع رواية عماد الدين (الورقة ٦٠أ)، ويتكرّر مع قدر أكبر من المصداقية بعد ثلاث صفحات، لتفسير استيلاء صلاح الدين على حلب.

[١٧٤] وصفت الحادثة بمجملها بالتفصيل، وبأسلوب عماد الدين الملحمي في البرق، م٥، الأوراق ٤٩-٦٥. ولا يستطيع تلخيص أبي شامة الجريء أن يعبّر عنه بحال. أبو شامة، م٢، ص٣٩-٤٠. ابن الأثير، م١١، ص٣٢٤-٣٢٥. قد استند (كالمعتاد) على رواية عماد الدين، لكنه حاول أن يشرح الاستيلاء على القلعة بفعل شح صاحبها، بما يناقض تماماً نصّ عماد الدين (الورقة ٦٠أ) ويعيد قصّها لنا مع تبرير أكثر، بعد ذلك بثلاث صفحات، لشرح استيلاء صلاح الدين على حلب.

وقد أشار في رسائله إلى الخلافة، بعد أخذ (آمد)، إلى العبرة. لقد فتح تقليد الخلافة إياه (آمد)، مغاليق أبوابها، فلماذا يمنع عنه حتى الآن تقليد (الموصل)، وهذا وحده يقف في وجه وحدة الإسلام، واستعادة (القدس)، وليميز أمير المومنين بين سلوك أوليائه، ولينظر أيهم أخلص لقضية الإسلام. وإذا كان (صلاح الدين) يصرّ على ضمّ (الجزيرة) و(الموصل) إلى ممتلكاته، فلأن "هذه الجزيرة الصغيرة (أي إقليم الجزيرة) منها تنبعث الجزيرة الكبيرة (الشرق العربي بأكمله): وهي دار الفرقة، ومدار الشقة، ولو انتظمت في السلك، لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشرك"[١٧٥]. وجلب إخضاع (آمد) بقية أمراء الأراتقة، في (ميافارقين) و(ماردين)، إلى صف (صلاح الدين)[١٧٦]. لذلك اتجه لتسوية حساباته مع (حلب)، ليتلقّى وهو في طريقه إليها، إذعان آخر حصونها الخارجية، أي: حصني (تل خالد) و(عين طاب)[١٧٧]. وفي ٢١ أيار عسكرَ قبالة (حلب)، مع توقع منطقي بأن

---

[١٧٥] عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ٦٩أ-٧١ ، ٦٨، أبو شامة، م٢، ص٤٠-٤١.

[١٧٦] عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ٧٥-٧٦، أبو شامة، م٢، ٤٢، وفيها يصف عماد الدين كيف أنه أمضى الليل مستغرقاً بكتابة عهود التولية، وأن حاكم ميافارقين قد أصبح تابعاً غير مباشر، حيث يدين بالسيادة لنور الدين بن قرا أرسلان (عماد الدين، البرق، الورقة ٧٦ب) أما أمير ماردين قطب الدين، فقد أصبح تابعاً مباشراً لصلاح الدين (نفسه، الورقة ٧٧أ). ويقول ميخائيل السرياني، بأن صلاح الدين بعد قتال شرس قد اشترى ميافارقين، لكن من خلال سياق روايته، يظهر بأن هذه الملاحظة تعود إلى حملة عام ١١٨٥.

[١٧٧] اقطع حصن تل خالد لبدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق، حاكم تل باشر، "قضاء لحق مسابقته إلى الخدمة" وقد دمرت قلعتها. وقد بقيت عين طاب في حوزة حاكمها: ناصح الدين محمد بن خمارتكين، (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٩٩ (أبو شامة، م٢، ص٤٢).

تستسلم له سريعاً[١٧٨]. ومع ذلك، فإن حرس (نور الدين) القديم، بقي على التصميم السابق نفسه الذي كان عليه. ويصوّر كاتب (صلاح الدين)، بصورةٍ حية، غرابة الوضع المعقّد، الذي كان عليه النزاع، فلا (عماد الدين)، ولا (صلاح الدين)، كانا متلهفين للقتال، فالأوّل كان توّاقاً للعودة إلى (سنجار)، والثاني فلأن النورية: حرس نور الدين القديم "همُ جندُ الجهاد، الذين أسدوا في الماضي الخدمات الجلى للإسلام، والذين كان بأسهم وشجاعتهم مثار إعجابه". فهما من "حرّك لهبَ الحرب"، وانغمس الشباب، والمندفعون بحماسٍ، لمنازلة المدينة، على الرغم من نهي (صلاح الدين)، والضباط الأكثر حِكْمة، وكان على رأس المقاتلين أخوه (تاج الملوك)، الذي قتل في المعركة[١٧٩]. وبعد بضعة أيام، انسحب (صلاح الدين) إلى (تل

[١٧٨] إن التحوّل في موقف الأهالي يظهر في رواية كمال الدين (م٣، ص٦٣" طبعة بلوشيه، ص٧٦)، ومفاده أن عماد الدين قد رأى أن يأخذ من الأهالي رهائن، "خوفاً من تسليم البلد". ومن الصعوبة فهم سبب قيام عماد الدين في العام المنصرم بتدمير القلاع التي تحرس المداخل الشرقية لحلب (نفسه، م٣، ٥٩، طبعة بلوشيه، ص٧٤-٧٦).

[١٧٩] عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ٧٩-٨٣. أما نص كمال الدين (م٣، ٦٣-٦٧) فيتفق في الجوهر مع نص عماد الدين، لكنه ينقل بعض التفاصيل عن ابن الأثير، وبخاصة قصة مقابلة عماد الدين لأمرائه. وإن بلوشيه قد أخطأ في فهم النص، الذي يبدو أن أصله يرجع إلى عماد الدين الأصفهاني. فحسب عماد الدين (البرق، م٥، الورقة ٨٤ب) أن عماد الدين زنكي قد أراد أن يضع نهاية للقتال، "ووجد عليه في كل شهر يفرقه ثلاثون ألف دينار على الأجناد والأمراء، وإذا طال الحصار وتعذر الانتصار، "راح الربح ورسخ الخسار"، لذلك رتب أن يرسل الأمير طمان الياروقي، سراً، مبعوثاً منه إلى صلاح الدين، "وهو قديماً يوالي السلطان". إلاّ أن نشوة الفتح كدرتها وفاة أخيه تاج الملوك بوري، إثر جراح أصيب بها (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٩٦ب). ويضفي ابن الأثير أبعاداً درامية على الحادثة، مُضيفاً إليها إضافة مريبة، مفادها أن صلاح الدين كان ينوي إعطاء حلب لتاج الملوك (ابن الأثير، م١١، ص٣٢٨).

الجوشن)، المطل على المدينة، وأمر بنّائيهِ بتشييد حصن هناك، وبدأ بإقطاع أملاك (حلب) على قواته. ورأى (عماد الدين زنكي) بأن لحظة الحسم قد آذنت، فرتّب سراً مبادلة (حلب) بـ(سنجار) و(شرق الجزيرة)، على شرط تعاونه في الحرب ضد الصليبيين. وفي ١١ حزيران ارتفعت أعلام (صلاح الدين) الصفراء على قلعة (حلب). ومع أن (صلاح الدين) لم يستول على القلعة، حتى أخرج (عماد الدين) آخر خزائنه منها، وأمّن عملية امتلاكه إقطاعاته البديلة. وأبدى الأمراء النورية بدورهم الإذعان، بصورة تبدو -نظراً للحوادث الخارجية- مفاجئة. أمّا (صلاح الدين)، فقد استقبلهم بوصفهم رِفاقاً قدامى في السلاح، وغمرَهُم بكرمه. ووحدَهُ حاكمُ (حارم) أبى الإذعان، وحاول أن يلتمس لنفسه عون أمير (أنطاكية)، لكن رجاله اعتقلوه، وسلموا القلعة إلى (صلاح الدين) في ٢٢ حزيران[١٨٠]

وتم ترتيب عقد هدنة مع (بوهيمند)، أمير (أنطاكية)، في مقابل إطلاقه سراح الأسرى المسلمين، وبذلك أصبح (صلاح الدين) في مركز يؤهّله للردِّ على غارات الفرنج، التي شنوها أثناء غيابه في (إقليم الجزيرة)، وعلى وجه الخصوص ما قام به (رينو)، صاحب (الكرك)، من غارة في الجزيرة العربية والبحر الأحمر. وأعلن لديوان الخلافة أن

---

[١٨٠] رسالة لعماد الدين (عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ٨٩ب-٩٠أ، أبو شامة، م٢، ص٤٨) ويقول فيها إن قوات حارم قد شكت بأن حاكمها (سرخاك) كاتَبَ الفرنج، فاقتيد أسيراً إلى حلب، وعين صلاح الدين محله: إبراهيم بن شروه.

اخر عقبة في طريق الجهاد قد أُزيحت[١٨١]، فخرج بقوات (حلب) النظامية، ومعها قوات (إقليم الجزيرة)، والخيالة التركمان، وأعداد غفيرة من المتطوعة والمرتزقة[١٨٢]. وبعد توقّفٍ قصير في (دمشق)، عبرَ نهر (الأردن) باتجاه (بيسان)، في ٢٩ أيلول، لكنه فشل في جرّ قوات المملكة الصليبية لخوض المعركة[١٨٣]، فما كان منه إلاّ أن عاد إلى (دمشق). ومن هناك أرسل في طلب (الملك العادل)، للانضمام إليه على رأس القوات المصرية، لمهاجمة (حصن الكرك). وبدأ بمحاصرة الحصن في تشرين الثاني. وكانت القوات الإسلامية واثقة جداً من النجاح، مما جعل فشل مجانيقها في إحداث ثغرة في السور، تؤدي إلى تثبيط عزيمتهم. وعندما وصلت الأخبار بوصول قوة لإنجاد (الكرك)، عند (الوالة)، وجدوا ما يعتذرون به للتخلّي عن الحصار، فانسحب (صلاح الدين) للإخلاد إلى الراحة، ولإعداد جيشه من جديد[١٨٤].

وجرت خلال فترة التوقف عن متابعة الهجوم، محاولة جديدة لحلّ المشكلة مع (الموصل)، عن طريق التفاوض. وقد جاءت المبادرة من

---

[١٨١] رسائل للفاضل (عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ٩٤أ" أبو شامة، م٢، ص٤٨" عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ١٠٨أ.

[١٨٢] عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق، ١٠٨ب-١٠٩أ.

[١٨٣] النص الرئيس نجده في رسالة مطولة، أوردها عماد الدين في البرق، م٥، الأوراق ١١٢-١١٤. وعنها استقى أبو شامة (م٢، ص٥٠) روايته، بعد أن شذبها بمهارة، وبدون تهاون. وهناك خطاب آخر يتبعه ورد في البرق يحمل الشروط نفسها (عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ١١٤ب-١١٦ب.

[١٨٤] هناك رواية مفصلة لدى (عماد الدين، البرق، م٥، الأوراق ١١٨أ-١١٩أ- ١٢٦ب" أبو شامة، م٢، ص٥١).

قبل (عز الدين)، الذي اتخذ خطوة طائشة بأعتقال مدبر دولته (مجاهد الدين قايماز)، فأدّى بالنتيجة إلى قيام ابن أخيه (سنجر شاه)، صاحب (جزيرة ابن عمر)، ومعه صاحب (أربل): (زين الدين)، أخو (كوكبوري)، وحكام (تكريت)، و(حديثة)، بالالتجاء إلى (صلاح الدين) طلباً لحمايته، ملتمسين تعهده بمعاونتهم[١٨٥]. فناشد (عز الدين) الخليفة أن يرسل شيخ الشيوخ ثانية للتفاوض مع (صلاح الدين)، "لعلمهم إنا لا نرى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع"[١٨٦]. وتم التوصل إلى اتفاق مع شيخ الشيوخ، مؤدّاه احترام حقوق (عز الدين) في (الموصل)، وأن يترك لولاته السابقين الاختيار بينه وبين (صلاح الدين)، لكن مبعوث الموصل رفض ذلك، وهكذا بقيت الأمور على حالها، إن لم تزدد سوءاً[١٨٧].

---

[١٨٥] حسب رواية عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٥٣) والبرق، م٥، الورقة ١٣٠، فإن سنجر شاه قد اختاره أبوه سيف الدين غازي، صاحب الموصل، خلفاً له، لكن عمه عز الدين مسعود أزاحه وحلّ محله، وعوّضه بالمقابل بحكم جزيرة ابن عمر، وتولّى تدبير أمره مجاهد الدين قايماز. ولأن إقطاعه كان يسمّى غالباً من قبل الكتاب العرب بالجزيرة، فإن المؤرخين الغربيين قد خلطوا بينها وبين إقليم الجزيرة. وهناك تعليق مهم عن الموقف في بغداد تجاه الموصل أورده ابن الأثير (م١١، ص٥٣) مفاده أن الخليفة الناصر استغل الحادثةَ نفسَها، وقام بالاستيلاء على داقوق. ويتحدّث ابن أبي طي (أبو شامة، م٢، ص٥٣) عن مشاركة مبعوثين من قبل بهلوان وقزل أرسلان وشاه أرمن بالمفاوضات، لكن ذلك لا يبدو مقبولاً بحدّ ذاته، فضلاً عن عدم وجود إشارة إلى حضورهم، في المصادر المباشرة .

[١٨٦] عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ١٢٩أ لعلمهم أنا لا نرى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع.

[١٨٧] هناك مصادفة نادرة الحدوث في هذه المفاوضات، إذ قص لنا أحداثها كاتبان كانا مشاركين فيها، الأول بهاء الدين، بصحبة قاضي القضاة في الموصل: محي الدين الشهرزوري (طبعة شولتنس، ٥٧ = طبعة القاهرة ٥٢)، ووصفه لها يتفق تماماً مع وصف عماد الدين (البرق، م٥، الأوراق ١٢٧أ–١٣٢أ) في المخطوط العامة. مقابله: العرض المضلّل الذي قدّمه ابن الأثير، م١١، ص٣٣٠. ورواية عماد الدين رواية مفصلة ونابضة بالحياة، وبخاصة في وصفه لموقف محي الدين الشهرزوري الذي لا

حشد (صلاح الدين) في غزوة جديدة لـ(الكرك)، في آب – أيلول ١١٨٤، أقوى جيش تحرك في (بلاد الشام)، متألفاً من قوات (دمشق) و(حلب) و(جزيرة ابن عمر) و(سنجار) و(حصن كيفا) و(ماردين)، ومعهم فرقة من (مصر). لكن الهجوم فشل ثانية، وتم تسريح هذه القوات بعد القيام بغارات في شمال (فلسطين). وقد وجد لدى عودته إلى (دمشق)، شيخ الشيوخ بانتظاره، حاملاً تقليد الخليفة بالأراضي الجديدة التي ضمّها، وبالخلع له، ولولاته[١٨٨]. لكن تبع ذلك أنباء بالغة الخطورة. فقد قبل (عز الدين) صاحب (الموصل) عرض أتابك (فارس)، وتلقى إمدادات قوامها ٣٠٠٠ فارس من أتابك

يحتمل، فصلاح الدين كان متلهفاً للتوصل إلى اتفاق، وحتى بعد رفض محي الدين للصيغة التي اقترحها شيخ الشيوخ، قام بجهد أخير لمنع المفاوضات من الانهيار. لكن القاضي رفض صراحة الرجوع إلى التفاوض، وأن أسلوبه العنيف وتهديداته قد أثمرت فقط عن إقناع صلاح الدين بأنه لا يملك خياراً سوى المواجهة، بعد أن كان ممتنعاً عن ذلك، "وكان السلطان فاتر العزم في العودة إلى الموصل، فهاجه وحرف إليها مزاجه" (البرق، الورقة ١٣٢ب)، ونوّه عماد الدين بصلة القربى التي تربطه بشيخ الشيوخ، فزوجة الأخير هي ابنة عم عماد الدين الوزير السابق: أبو نصر حامد بن حميد (البرق، الورقة ١٢٨أ) وللأسف ينتهي القسم المتبقي من كتاب البرق عند هذه الحادثة، مع إبلاغ صلاح الدين لزنكي وتقي الدين بعزمه على مهاجمة الكرك.

[١٨٨] عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٦٠،٥٦، بهاء الدين، طبعة شولتنس ٥٩=القاهرة ٥٤). وأن الخلع قد أرسلت إلى العادل وناصر الدين محمد بن شيركوه ونور الدين، صاحب حصن كيفا، ويورد أبو شامة مقتطفات من منشور التقليد التي أعطى أربل لزين الدين يوسف بن علي كوجك، وتشدّد كما هو معتاد على فريضة الجهاد. وأن الأراضي التي اشتمل عليها التقليد، هي: أربل، بقلعتها وأعمالها، ومنطقة الزاب الكبير، وشهرزور، وأعمالها، ومعايش (الحاء) بيت قفجاق (تركمان)، وبيت القرابلي والدشت والزرزارية (الكورد). وعن الفتنة التي وقعت بين الكورد والتركمان عام ١١٨٥، واستغرقت نحو ثماني سنوات، انظر: ميخائيل السرياني، م٣، ص٤٠٠-٤٠٢ (وهو نصٌّ واضح يقدّم تفاصيلَ دقيقة).

(قلج أرسلان)، صاحب (أذربيجان)، للهجوم على (أربل). ومع أن الهجوم قد فشل، إلا أن حاكمها استنجد بـ(صلاح الدين) ليبرّ له بعهده، مما يسّر لـ(صلاح الدين) الفرصة لتجديد حملته على (الموصل)[١٨٩]. وواتاه الحظ الطيب عشية شروعه بحملته في العام التالي، عندما دعاه (ريموند)، صاحب (طرابلس)، للموافقة على عقد هدنة لمدة عام واحد[١٩٠]. فبعد أن أمّن طرف الصليبيين، جمع قواته في (حلب)، في أيار ١١٨٥، فعبر (الفرات)، وزحف باتجاه (الموصل)، على الرغم من تحذير (قلج أرسلان) سلطان سلاجقة الروم له بأنه سيواجه تحالفاً من الأمراء الشرقيين[١٩١]. لكن (الموصل)

---

[١٨٩] عماد الدين وبهاء الدين، أما ابن الأثير (م١١، ص٣٣٢) فيندّد بالعنف والوحشيّة التي كانت عليها قوات أذربيجان الفارسية، ويصف اشمئزاز مجاهد الدين من سلوك حليفه الجديد. ومع أن ابن الأثير لا يخرج من ذلك بخلاصة، لكن من المحتمل أن ذلك كان عاملاً أسهم في إذعان الموصل لصلاح الدين في السنة القادمة. وفي كتاب الباهر، نشرة مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .R.H.C، قسم المؤرخين الشرقيين، م٢، ق٢، ص٣٣٥-٣٣٦) يتحدّث ابن الأثير عن محاصرة عز الدين لسنجر شاه، في ربيع الأول عام ٥٨١، أي في الوقت نفسه الذي كان فيه سنجر شاه برفقة صلاح الدين في زحفه على الموصل. وقد تم تنقيح هذه الرواية في الكامل (م١١، ص٣٨-٤٠) وجعل تاريخها في ٥٨٧، والحادثة تشير إلى تعليمات صلاح الدين إلى عز الدين.

[١٩٠] انظر فيما بعد ص٤٥ هامش ٢.

[١٩١] اتخذ صلاح الدين، أثناء عبوره الفرات، خطوة ليس من السهل تعليلها، فإن مبعوثي كوكبوري قد عرضوا عليه أنه عند وصوله إلى حران "يقوم بكل ما يحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، ويقدّم يوم الوصول إلى حران خمسين ألف دينار، "فلم يتم الالتزام بذلك، عندها قبض صلاح الدين على كوكبري لشكه بأنه انحرف عن طاعته، وأخذ منه قلاع حران والرها، ووضعه تحت المراقبة. لكنه عاد بعد فترة من الزمن فاقتنع بإخلاصه، فأعاد إليه القلاع، عماد الدين (أبو شامة، الروضتين، م٢، ص٦١، بهاء الدين، شولتنس، ص٦٠ = القاهرة ٥٤-٥٥) أما ابن الأثير (م١١، ص٣٣١) فيجعل إطلاقه سراحه خوفاً من السخط الشعبي، مفترضاً بأن صلاح الدين

تركت لقدرها، وحتى الخليفة رفض الآن أن يتدخل، ربما لأن (عز الدين) قد أجبر على الاعتراف بالتبعية للسلطان (طغرل)[١٩٢]، وهو الأمر الذي لم يترك (صلاح الدين) فرصة تمر دون التذكير به. وخلال حرارة الصيف خفف (صلاح الدين) قليلاً من شدة الحصار، تاركاً قسماً من جيشه أمام أسوار (الموصل)، وقاد بقية القوات شمالاً، لمعالجة الوضع المضطرب، الذي أثارته وفاة كل من (نور الدين)، وأمراء (خلاط) و(ماردين). وقبل أن يغادر، بعث إلى الخليفة يطلب التقليد بـ(أرمينيا) و(ديار بكر) و(الموصل)، وتلقّى الرد بمنشور يتقلّد بموجبه "النظر في أمر ديار بكر، والنظر في أمر أيتام ملوكها". وبالتقليد، أو بدونه، نجح (صلاح الدين) في تأمين مركزه في (ميافارقين) و(ماردين) و(آمد)، وإن نجح (شاه أرمن) في أخذ (خلاط) قبله[١٩٣].

كان يعتزم فعلاً أن يجرّده من إقطاعياته. ولكن إذا كان صلاح الدين قد بقي فعلاً يشك بكوكبري، فلماذا خصّه بعد فترة قصيرة بامتياز أن زوجه أخته رابعة خاتون، بعد وفاة زوجها الأول مسعود بن أنر في أيلول ١١٨٥. عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٦٧، الذي أضاف بأنها قد توفيت في عام ٦٤٣، وآخر من بقي على قيد الحياة من أولاد نجم الدين أيوب.

[١٩٢] بهاء الدين (طبعة شولتنس ٦٢ = طبعة القاهرة، ص٥٦ وأنه نفسه كان مبعوثاً إلى بغداد، وقد أضاف بأن شاه بهلوان رفض كذلك أن يُرسل له النجدة. وبالنسبة لوفد صلاح الدين إلى الخليفة، انظر: عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٦٢).

[١٩٣] كان يحكم ماردين أمير نظام الدين بن البقش، بالنيابة عن ابن قطب الدين، الصغير السن. وقد استولى احد أمرائه، وهو أسد الدين يرنقش، على ميافارقين، وصمد في مواجهة صلاح الدين، حتى تم التوصل إلى تسوية عن طريق أرملة قطب الدين. وبوفاة نور الدين بن قرا أرسلان في ١٥ تموز ١١٨٥، خلفه ابنه قطب الدين سكمان، إلاّ أن عماد الدين بن قرا أرسلان، الذي كان يقود قوات أخيه نور الدين، في حصار الموصل، حاول أن يستولي على آمد لنفسه، وبعد أن فشل في ذلك، عاد

وفي تشرين الثاني عاد (صلاح الدين) مجدداً إلى (الموصل)، ونيته مواصلة حصارها طوال الشتاء. وفي محاولة أخيرة من (عز الدين)، لدرء النهاية التي أصبحت محتومة، اتجه لمناغاة فروسية (صلاح الدين)، عن طرق إرسال وفد من الأميرات الزنكيات، للتشفع له[١٩٤]، إلا أن الوضع أصبح بالغ الخطورة، ولم يكن بإمكان (صلاح الدين) أن يعد بأكثر من قبول وساطة (عماد الدين زنكي)، صاحب (سنجار). وما حدث لاحقاً ليس واضحاً بما يكفي. فقد سقط (صلاح الدين) مريضاً فجأة، و"ندم على رد الشوافع، وسير إلى عماد الدين صاحب سنجار في إنفاذ رسله إلى الموصل". ودون انتظار نتيجة المفاوضات، غادر (الموصل) في ٢٥ كانون الأول، متجهاً إلى (حران)، وسحب قواته إلى (نصيبين).

وفي شهر شباط التالي، قام (عز الدين) – بعد أن أُجبر على التنازل لـ(صلاح الدين) عن السيادة على أملاك حلفائه، في جنوب الزاب

فاستولى على خرتبرت، وقبل عودة صلاح الدين إلى الموصل، عهد إلى مملوكه الأمين حسام الدين سنقر الخلاطي، بحكم ديار بكر. ويشير ميخاليل السرياني، م٢، ص٣٠٧ إلى أن استيلاء شبكتكين، حاكم الرها، على ماردين، كان بناءً على أوامر صلاح الدين، بعد أن أدرك أنه عاجز عن الاستيلاء عليها، فأقرّ حاكمها في منصبه، بوصفه تابعاً.

١٩٤ يجعل ابن الأثير (م١١، ص٣٣٧) الحادثة مع بداية الحصار، ويحاول أن ينكر أن ذلك كان إشارة إلى ضعف مركز عز الدين، إلاّ أن عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٦٤ يجعلها بعد عودة صلاح الدين من ميافارقين، وهو الأصح. وهذه المحاولة اليائسة التي لجأ إليها ابن نيسان أثناء حصار آمد (أبو شامة /٢، ص٤٠). وهناك مثال أنموذجي على المواءمة التزييفية على يد أبي الفرج بن العبري، في كتابه Syriac Chronography (tr. Buge ,London ,١٩٣٢ ,٣١٩) حيث ينقل كلتا الروايتين (أي روايتي عماد الدين وابن الأثير) فيجعل صلاح الدين يقول عند عودته: "لقد أرسل أهل الموصل أولئك النساء أنفسهن مرة أخرى لتحقيق الصلح".

الأعلى، بضمنها أربل وشهرزور – بإرسال القاضي (بهاء الدين) مبعوثاً عنه إلى (حران)، ومعه تعليمات بأن يأخذ يمين (صلاح الدين) على أقصى ما يستطيعه من التنازلات. فأعاد له (صلاح الدين) منطقة صغيرة بين (نصيبين) و(دجلة)، تعرف بـ(بين النهرين). وبهذا القَسَم أصبح (صلاح الدين) السيد الأعلى، وتعهّد (عز الدين) بإرسالِ قواته لدعمه في استرداد (فلسطين)[١٩٥] وأخيراً التأم شمل التحالف العظيم.

الجهاد ضد الصليبيين:

طوال تلك السنوات، كان (صلاح الدين) قد كرّس جوهر اهتمامه لبناء القوات اللازمة للصراع القادم، ولعلّ من صالحه أنه لم يخض عمليات ضخمة ضد الفرنجة. وفي عام ١١٨٠، وبعد الهزائم التي ألحقت بهم في العام المنصرم، ونتيجة نقص المؤون، وبفعل سنوات المحن المتواصلة، وافق (صلاح الدين) على توقيع هدنة مع

---

[١٩٥] عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٦٤) وبهاء الدين (شولتنس، ص٦٢ = القاهرة، ص٥٦-٦٧). أمّا ابن الأثير (م١١، ٣٣٧-٣٤١) فيقدم، كما هو معتاد، قدراً من التفاصيل الخيالية، إلا أنه يضيف عدداً من النصوص القيمة، مفادها أن هناك جماعة بين أمراء الموصل كانوا موالين لصلاح الدين، وأن الاتفاق النهائي كان بفضل مجاهد الدين قايماز. ولم يذكر عماد الدين ولا أبو شامة بين النهرين (وعنها انظر: ملاحظتي كل من دي سلان في R.H.C.,Or.,II.٢,٣٥٠، وكي لسترانج في Land of the Eastern Caliphate ,repr.London,١٩٦٦,p.١٠٠). أما بهاء الدين فيكتفي بالإشارة إلى ذلك، دون أن يتحدّث عن تنازل عز الدين عن المناطق الشرقية، مضيفاً بأن صلاح الدين قد أخذها من سنجرشاه، الذي تحدها إمارته في جزيرة ابن عمر من الشمال الشرقي.

(بلدوين)، في البر والبحر. وعندما رفض (ريموند)؛ صاحب (طرابلس)، أن يقر هذه الاتفاقية، أعيد إلى صوابه بسلسلة من الغارات التدميرية، فضلاً عن الاستيلاء على (جزيرة أرواد)، من قبل الأسطول المصري[١٩٦]، وكانت حرية التجارة أحد أهم شروط الهدنة، من وجهة نظر (صلاح الدين). لأن طريق (مصر – دمشق)، الذي يقع عبر القلاع الصليبية في المنطقة الساحلية، وكذلك عبر نقاط الحراسة الخارجية: (الكرك) و(الشوبك)، كان محفوفاً بالمخاطر، وكان على القوافل في أوقات الحرب، أن تحرسها قوات عسكرية. وكان خرق (رينو)، صاحب (الكرك)، لهذا الشرط، في عام ١١٨٢، هو الذي أعطى إشارة العودة إلى العلاقات العدائية. فقد سبق له أن قام في خريف عام ١١٨١، بغارة على (واحة تيماء)، شمال (الحجاز)، لكنه انسحب منها، على إثر هجوم مضاد عنيف قام به (فروخشاه)، انطلاقاً من (دمشق). وعلى الرغم من أن الأمر كان سيئاً للغاية، لكن (صلاح الدين) لم يتخذ أي إجراء، حتى قام (رينو) بالاستيلاء على قافلة في طريقها من (دمشق) إلى (مكة). وعندما لم تثمر كل الجهود لإصلاح الخطأ الذي ارتكبه، قرّر (صلاح الدين) الاحتكام إلى القتال، فنزل بقواته في ربيع ١١٨٢. ومع أن هذه القوات لم تكن تكفي للقيام بهجوم كاسح، فإنه كان يأمل، بلا شك، أن يوقع بعض الخسائر الإضافية بالفرنجة، إلا أن تكتيكات (بلدوين) الدفاعية، على أي حال، حالت دون وقوع اشتباك كبير، لكنها تركت المناطق الريفية عرضة

---

١٩٦ William of Tyre ,XXII,cc.١-٣(trans.,II,٤٤٧-٤٤٩)

لغارات خيالة (فروخشاه)، وعادت قوات المسلمين إلى (دمشق) قريرة العين بما جنته من غنائم.

وجاءت عملية (صلاح الدين) التالية أشد جرأة، فمنذ عام ١١٧٧ كان (صلاح الدين) قد بدأ بإعادة تنظيم الأسطول المصري، فجعله قسماً منفصلاً ومستقلاً، وتحت قيادة منفصلة. ومنحها صلاحيات، بتوفير كل المواد اللازمة، وكل الرجال المطلوبين، ورفع في الوقت نفسهِ من أجور العاملين فيه[١٩٧]. وفي منتصف السنة ذاتها، بدأ أسطول الأسكندرية ودمياط بعملياته[١٩٨]. وفي عام ١١٧٩ قام بغارة جريئة على (عكا)، و(الساحل الشامي)، "وهذا ما لم يعهد من الأسطول الإسلامي مثله، في سالف الأزمان"[١٩٩].

جرى الحديث عن الاستيلاء على (أرواد)، في السنة التي تلتها. وكان للأسطول حصته من التطوير، خلال عملية إعادة تنظيم القوات المصرية، التي أجراها (صلاح الدين) عام ١١٨١[٢٠٠]. وخطط لعملية

---

[١٩٧] عماد الدين (أبو شامة، م١، ص٢٦٩) أغلب التفاصيل يقدمها ابن أبي طي. أما رفع نسبة الرواتب، فقد ذكرها المقريزي في السلوك، م١، ٤٥، فلدينار الأسطول (نسبة الرواتب والجرايات التي تعطى للعاملين في الأسطول، مقارنة بالقيمة المتحققة للإقطاعات المخصّصة لهم) قد تم رفعه من خمسة أثمان إلى ثلاثة أرباع، وقد انتقد عماد الدين بقسوة صفات العاملين في الأسطول، بعد هزيمة الأسطول أمام صور ١١٨٧، عماد الدين، الفتح، ص٨١.

[١٩٨] عماد الدين (أبو شامة، م١، ص٢٧٠).

[١٩٩] رسالة للفاضل أوردها أبو شامة، م٢، ص١٣-٤، في هذه الرسالة (ص١٤، س١) وهناك رواية لابن جبير (نشرة G.M.S.,p.٥٩,I,٢٠) وهناك إشارة خاصة إلى البحارة المغاربة الذين جندوا للعمل في الأسطول.

[٢٠٠] انظر هامش ١ أعلى، حفظ لنا المقريزي ملحوظات موجزة عن الإجراءات لتقوية الأسطول، السلوك، م١، ص٧٣.

مشتركة برية بحرية ضد (بيروت)، على أمل الاستيلاء على المدينة بغتة. وقد نفذت العملية بمهارة ، إلاّ أن الحامية استطاعت الصمود في وجه هجماته، حتى تمكّن (بلدوين) من التجهز لفكِّ الحصار عن المدينة، عندها انسحب (صلاح الدين) بخيالته الخفيفة، وبالقليل الذي لديه من التجهيزات، ليعيد تحشيد قواته في (بعلبك)، ويتّجه إلى الشمال[٢٠١]

وخلال حملات (صلاح الدين) في (الجزيرة)، وصراعه مع (حلب)، ترك (فروخشاه) في (دمشق)، ومعه تعليمات بالتصدّي – قَدْرَ استطاعته، وبما يمتلكه من قوات تحت تصرّفه– لغارات الفرنجة على الأراضي الإسلامية. وعندما نما إلى (صلاح الدين) خبر مهاجمة (بلدوين)، قال: "هم يهاجمون القرى، ونحن نأخذ

---

٢٠١ نتيجة فقدان رواية عماد الدين في البرق، والتي تعرض باختصار في (أبي شامة، م٢، ص٢٩)، يُصبح الاعتماد على رواية وليم الصوري المفصلة، وهي تعزّز قول عماد الدين بأن صلاح الدين لم يستصحب معه الأثقال. وهذا يُثير الشكوك بشأن الهدف من الإغارة على بيروت، لأنه لا يبدو من المعقول أنه كان يستهدف الاستيلاء على بيروت، التي هي حصن معزول وغير منيع يقع على الطريق بين طرابلس والقدس، وفي ضوء تلك الظروف يُصبح من غير الوارد الاستيلاء عليه. ومن الممكن أنه كان يريد أن يتخذ من بيروت قاعدةً لعمليات أوسع، سواء باتجاه بيروت أو طرابلس، وأن يوسع قبضته بصورة تمكنه من الحصُول على ممر إلى الساحل، لكن القوات التي كانت تحت قيادته – كما هو واضح – اضأل من ان تتمكّن من الاحتفاظ بموقع مكشوف، مثل بيروت. واستناداً إلى مصادرنا، فإن صلاح الدين كان مُقتنعاً بأنه ليست هناك إمكانية للقيام بعمل حاسم في فلسطين، إلاّ بدخول حلب تحت سيطرته، وإمكانية الاستعانة بقوات إقليم الجزيرة. ولطالما أنه على الأرجح قد سبق أن قرّر الزحف باتجاه حلب في ذلك العام، فليس بإمكانه توسيع عمليات قواته جنوباً، وإنما على العكس عليه تركيزها. والأدلة تثبت بأن عملية بيروت لم تكن أكثر من غارة.

المدن"[٢٠٢]. إلاّ أن الأخبار الأشدّ خطورة تتمثلُ بغارةِ (رينو) على طرق التجارة في البحر الأحمر، وتوغله في (الحجاز)، في شباط من عام ١١٨٣. إلاّ أن أمير البحر (حسام لؤلؤ) وجّهَ للغزاة درساً قاسياً. ومع ذلك، فهذه المغامرة قد أثارت موجةً من الذعر والرعب، على امتداد العالم الإسلاميّ، وأسهمت أيضاً، كسِواها من الحوادث الفردية، في رفع مكانة (صلاح الدين)، وتدعيم مركزه[٢٠٣].

ومع أن العمليات العسكرية، التي جرت في النصف الثاني من عام ١١٨٣،لم تسفر عن نتيجة حاسمة، إلاّ أنها أسهمت في تحول الفرنجة إلى موقف المدافع[٢٠٤]. ويصدق الأمر على حصاره غير الناجح لـ(الكرك)، في آب من عام ١١٨٤، وما تبعه من الإغارة على (فلسطين). فقد مثلت عاملاً مهمّاً لتحقيق هدف مفيد، فقد جمعت -للمرّة الأولى- أغلب الفرق المتنوّعة لجيش (صلاح الدين)، وقدّمت لها ما هي بأمس الحاجة إليه، من تمرين على العمليات

---

[٢٠٢] أورد هذه العبارة ابن الأثير، الكامل، م١، ٢١٩، ويمكن أن تكون من ابتكاراته، إلا أن وليم الصوري لا يخفي حقيقة أن الفرنج قد عدوا غياب جيش صلاح الدين في الشمال فرصة للقيام بالغارات والنهب، لا لعملية غزو عسكري حقيقي. وأنهم كانوا ناقمين للطريقة التي تجاهلهم بها، وتقدم شمالاً.

William of Tyre ,XXII,٢٠ (trans.,II,٤٨١).

[٢٠٣] انظر على سبيل المثال: ابن جبير، ص٥٩ الذي كان حاضراً خلال استعراض الأسرى في الاسكندرية في السنة التالية. ويقدم عماد الدين في كتابه البرق، م٥، الأوراق ٤٢ وما بعدها، النص الرئيس عن الحادثة. وقد أوفى أبو شامة في تلخيصه له في مجلده الثاني، ص٣٥.

[٢٠٤] انظر قول وليم الصوري: "لقد عاقَبَنا الربُّ على خطايانا، بأن جعل عدوّنا أقوى منا، ونحن الذين اعتدنا على الظفر على أعدائنا، ولطالما حملنا أكاليل المجد، أصبحنا الآن بعيدين عن رضا الرب، ننسحب من ميدان المعركة، يجللنا في كل صدام تقريباً خزي الهزيمة".

المشتركة. وواصل الأسطول المصري كذلك نشاطاته، خلال تلك السنتين، وإن لم يقدم أعمالاً خارقة للمألوف[٢٠٥]. لذلك كان (ريموند)، صاحب (طرابلس)، وبارونات (القدس)، على أتم الاستعداد لطلب الهدنة في ربيع عام ١١٨٥، الأمر الذي أطلق يد (صلاح الدين) للقيام بحملته الختامية ضدّ (الموصل)[٢٠٦].

---

٢٠٥ عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٤٧)، المقريزي، السلوك، م١، ص٨٨.

٢٠٦ مصدرنا الأساس هو أرنول، ضمن:

Chronique d Ernoul et de Bernard le tresorier ,ed.Mas Latrie ,Paris ١٨٧١, ١٢٤,

فقد عزا خطوة ريموند هذه إلى ضعف نتاج المحاصيل الزراعية وتهديد المجاعة. وأضاف بأن صلاح الدين سرعان ما أمدّ النصارى بكمياتٍ ضخمة من الأغذية. وهذا أسهم في تعزيز شعبية ريموند بصورة كبيرة. الإشارة المباشرة الوحيدة للهدنة، في المصادر العربية، نجدها لدى كمال الدين بن العديم (م٣، ص٨٠" طبعة بلوشيه، ص٩٥)، لكن نجد إشارة إليها لدى عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٧٥). وقد أساء ابن الأثير فهم النص، فصوّره هدنة منفردة مع ريموند (ابن الأثير، م١١، ص٣٤٨). وقد عرض كل من لين بول وكروسيه الهدنة بصورة غير صحيحة، فقد أكّد الأول (Saladin ,p.١٨١) ان "الأمر بالنسبة لريموند لم يكن مجرد هدنة، وإنما تحالف دفاعي هجومي، بمعنى أن يساعده صلاح الدين بمخططاته للوصول إلى العرش، "وتفسير كهذا مستخلص مِمّا سيجري لاحقاً من حوادث عامي ١١٨٦-١١٨٧، وليس ثمة دليل عليه في المصادر التاريخية. وتعليق كروسيه أكثر إثارة للدهشة، حينما يقول: "إن الخلاصة التي نخرج فيما يتعلّق بصلاح الدين، أنه قنع بتكوين إمبراطورية شامية مصرية ضخمة، واكتفى بالدعاية للحرب المقدسة، في الوقت الذي كان فيه متسامحاً مع فرنجة الساحل (Grouseet , Histoire des Croisades , paris ,١٩٣٤-١٩٣٦ ,II ,٧٦١). من المستحيل أن يساء بهذه الصورة فهم شخصية صلاح الدين كلياً، فالأمر هو تكرار الموقف المعادي الذي مثله ابن الأثير، لا بل هو تطوير لهذا الموقف، فلربّما أن ابن الأثير لم يكن يشك في الهدف النهائي لصلاح الدين. ويمكن أن نمضي أبعد في التساؤل: أي نوع من الرضا يمكن أن يحصل عليه بمجرد إقامة إمبراطورية؟ وفي رسالة كتبت بعد أخذه حلب، نراه يقول: "لأن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها عدوها لا نضرتها، وأن تعظم في العدو الكافر نكايتها، لا

(صلاح الدين) وأسرته:

إن أبرز نقاط ضعف (صلاح الدين) يتمثل في الجانب الإداري؛ فكل توسع في ممتلكاته، كان يفرض عليه اختيار حاكم يتعهّد بالمحافظة على مبادئه، ويتعاون معه عبر مخطط واسع. لكن ذلك كان يتقاطع مع الشعور العميق بالولاء، الذي كان يكنّه تجاه أفراد أسرته، وهو طبع لربما عزّزه أصله الكوردي. لقد محضهم كامل ثقته، وتوقع منهم بالمقابل ثقتهم وولاءَهم. وكان رجلاً لا يتأثر أبداً بالمزايا المادية للسلطة. ولا يبدو أنه كان يمتلك وعياً بالتأثير المفسد للسلطة والثروة على الآخرين، ومن الواضح أنه لم يُدرك تماماً طبيعة روح التحاسد بينهم، إلاّ عندما دهمه مرضه الخطير في عام ١١٨٥.

كان سلوكه المعتاد أن يمنح ولاته سلطات مطلقة، مشترطاً فقط معاملتهم لرعاياهم بالعدل والمساواة، على ضوء الشريعة الإسلامية، والمساهمة في نفقات الجهاد، وأن يحافظوا على انضباط فرقهم العسكرية، وإبقائها على أهبة الاستعداد لتلبية النداء، عندما يحين الوقت[٢٠٧]. وفيما يتعلّق بالشرط الثاني، فقد تمت مراعاته باستمرار،

أن تعذق بالولي المسلم ولايتها" (أبو شامة، م٢، ص٤٣). ولم يسجل عليه، على امتداد سيرته، فعل واحد يتناقض مع تصريحه هذا.

[٢٠٧] عن سلطات (تورانشاه) في دمشق، انظر ص٢٠ هامش١. أما بالنسبة لحكومة العادل في مصر، فيقول عنه عماد الدين: "وهو مستقل بالأمر والنهي... وإبرام المعاقد، وإحكام القواعد... وهو سلطان الديار المصرية، على الحقيقة، وهو يمده بالمال والرجال" (عماد الدين، البرق، م٥، ١١٦أ). وإن الشروط التي تضمنها مرسوم تقليد ابن المقدم على دمشق (عماد الدين، م٥، ٤٦ب، ٤٧) تعكس بصورة أكثر وضوحاً، المبادئ التي قامت عليها إدارة صلاح الدين. ويذكر ميخائيل السرياني،

إذا استثنينا وضع (تورانشاه)، الذي كان سجله - سواء في اليمن، أو في دمشق- مخيباً. أمّا بالنسبة للشرط الأوّل، فلا يمكن بحال القول بأنه قد تم مراعاته، فالثروات الضخمة التي خلفها الولاة والقادة، من أمثال: (ناصر الدين محمد) في (حمص)[٢٠٨]، تدفعنا لاستخلاص أوضاع، نستطيع - في بعض الأحيان- أن نجد أدلة دقيقة عليها[٢٠٩]. وإن معرفة (صلاح الدين) بهذه التجاوزات كانت واضحة، من خلال تواصل عملية منعه للمكوس، وغيرها من الإجراءات التعسفيّة في المراسيم، وكذلك في كتب التقليد التي كان يصدرها، فضلاً عن الإشارات المحدّدة لسلوك مقطعيه[٢١٠]. لكنه كان ضيق الصدر حيال

م٣، ٤٠٨، ٤١٠ بان كلاً من تقي الدين، والعادل، وأولاد صلاح الدين الثلاثة: الأفضل في دمشق، والعزيز في مصر، والظاهر في حلب، قد حملوا لقب السلطان.

٢٠٨ عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٦٩). وفي هذا الشأن يجد ابن الأثير (م١١، ص٣٤١) الفرصة الوحيدة لاتهام صلاح الدين بالاستيلاء على ممتلكات الغير. فبعد أن يورد قصة، يسندها إلى أشخاص لم يسمهم، منكراً أي مسؤولية له بشأنها، بقوله: (وذكروا، وعليهم العهدة) بأن ناصر الدين محمد قد سقي السم بأمر من صلاح الدين، وتحدث كحقيقة أن صلاح الدين قد استعرض تركة ابن عمه، تاركاً فقط ما لا قيمة له. ويزوق قصته بإضافة خبيثة، بدأها بعبارة (وبلغني أن)، إلا أن عماد الدين، الذي كان شاهد عيان، قد ذكر بأن صلاح الدين قد استعرض تركة ناصر الدين، وقسمها بين ورثته: الزوجة والبنت والابن، "فما أعارها طرفه".

٢٠٩ مثال ذلك ابن المقدم، خلال حكمه لبعلبك: أقام بها مستقراً، ولأخلاف أعمالها مستدراً (عماد الدين أبو شامة، م٢، ص٢) وكذلك هناك الفقرة الشهيرة، التي قدمها ابن جبير(طبعة سلسلة كتب التذكارية، ص٣٠١-٣٠٢) وعنها انظر بحث كلود كاهن "Indigenes et croisde" المنشور في مجلة Syria باريس ١٩٣٤، الصفحات ٣٥٦ فما بعدها.

٢١٠ في مرسوم تقليد ابن المقدم حاكماً على دمشق، في عام ٥٧٨/١١٨٢-١١٨٣، يشدّد بوضوح على تمتعه بالسلطة، لمنع المقطعين من اضطهاد الرعية، فيسجل عماد الدين، البرق، م٣، الورقات ١٠٥ ب -١٠٦أ.

التفصيلات الصغيرة واليومية للإدارة، على الرغم من أهميتها، ويتّضح كذلك ضعف إشرافه الشخصي[٢١١].

تولّى (العادل سيف الدين) نيابة أخيه (صلاح الدين) في (مصر)، منذ مغادرته للاستيلاء على (دمشق) سنة ١١٧٥. كما أسندت إدارة (دمشق) إلى (فروخشاه) ابن أخيه، بدلاً عن (تورانشاه)، منذ عام ١١٧٩. أما (تقي الدين عمر)، فقد انضوت تحت سيطرته (حماة)، وتوابعها الشمالية، مع حلم بإقامة إمبراطورية في (أفريقيا). وقد أدّت الفوضى التي انتشرت في (اليمن)، إلى تعيين (طغتكين)، أخا (صلاح الدين)، نائباً عنه في (اليمن). وعندما توفي (فروخشاه) في السنة عينها (١١٨٢)، عاد (ابن المقدم) من جديد حاكماً لـ(دمشق)[٢١٢]. لكن الاستيلاء على (حلب)، عام ١١٨٣، حتم إجراء عملية إعادة تنظيم شاملة[٢١٣]؛ ففي البداية عهد بها إلى ابنه (الظاهر غازي) كـ(سلطان)[٢١٤]، وفي معيته عدد من الضباط الموثوقين، لمساعدته.

---

[٢١١] انظر على سبيل المثال قول عماد الدين عن سجلات الدخل في دمشق، أبو شامة، م٢، ص٥ (مأخوذة من البرق، م٣، الأوراق ١٠٥ب-١٠٦ أ.

[٢١٢] ويتضمّن منشور تقليده، المشار إليه في (هـ١) أعلاه، بعد أن يوجهه أن يستعرض جنده، ويبقيهم في وضع جيد، وأن يجبرهم على المحافظة على أعداد وعدد رجالهم، وأن يتأكّد أن لا يغيب واحد منهم نفسه إلا بعذر قاهر، وأن يحافظ على النظام بين قبائل العربان، ويضيف أنه إذا ما بقي أحد من العربان في أرض الفرنج، فعليه أن يُرسل إليهم عسكره، ويواصل مضايقتهم، حتى يخضعهم لسلطانه، رغباً أو رهباً.

[٢١٣] إن قول ابن الأثير (م١١، ص٣٢٨) بأن صلاح الدين كان ينوي إعطاء حلب لأخيه الأصغر تاج الملوك بوري، هي إضافة مثيرة للريبة، ولا توجد ثمة إشارة إلى ذلك لدى عماد الدين.

[٢١٤] العبارة لابن أبي طي أوردها أبو شامة، م٢، ص٤٧. وقد كان الظاهر قد ولد في مصر عام ٥٦٨، لذا لم يكن يتجاوز آنذاك الخامسة عشر من عمره.

إلاّ أن هذا الترتيب اعترضه (العادل)، الذي طلب استبدال حكومة (مصر) بـ(حلب). وأياً كان حزن (صلاح الدين) على إزاحة ابنه الأثير عنها، فإنه وافق دون تردد على ذلك. ونجد أن مرسوم التعيين على (حلب)، قد كتب بعبارات تنضحُ بالحب الأخوي، بما هو غير مألوف في وثائق رسمية كهذه. وقد منح (العادل) سلطات غير محدودة، ولم تخضعه سوى للشروط التقليدية، من: تخصيصه مبلغاً محدداً من المال للزردخانة الحربية، وعدداً محدّداً من الرجالة برسم الجهاد(٢١٥). وبناءً على نصيحة مستشاره الأمين (القاضي الفاضل)(٢١٦)، تم إحلال (تقي الدين عمر) في (مصر)، محلّ (العادل)، مع إرسال (القاضي الفاضِل) نفسِه برفقته، لخوفه المبرّر من تهوره(٢١٧).

وخلال فترة مرض (صلاح الدين) الخطير، قام عدد من أقربائه بترتيباتهم الخاصة في ممتلكاتهم، لضمان مصالحهم في حال وفاته. ولربما بسبب ذلك، فضلاً عن حرصه على تهيئة الحكم لأولاده،

---

٢١٥ أورد عماد الدين المنشور كاملاً في البرق، م٥، الأوراق ١٢٤أ –١٢٦أ، والمقصود بالرجالة على الأرجح قوات الحصار، الذين سنجدهم يرافقون عسكر حلب عند حصار صور (عماد الدين، الفتح القسي، ص٧٥). ويؤكد ابن أبي طي (أبو شامة، م٢، ص٥٢) كان العادل يرغب أن يوقع معه صلاح الدين عقداً لبيع حلب، لكنه رفض قائلاً: "أظننت أن البلاد تباع".

٢١٦ عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ١١٧ب.

٢١٧ عماد الدين، البرق، م٥، الورقة ١٢٠ب يتبعه نص المنشور (بعبارات أكثر رسمية) الأوراق، ١٢١أ–١٢٢ب. وقد احتفظ تقي الدين، علاوة على ذلك، بإقطاعه في حماة. إن عملية التبادل قد جرت أثناء حصار الكرك عام ١١٨٣، حيث قدم العادل من مصر، على رأس فرقته العسكرية، ومضى تقي الدين وقواته الشخصية عائداً إلى مصر برفقتها.

الذين أخذوا يشبون عن الطوق[٢١٨]، قام (صلاح الدين) عام ١١٨٦ بتوزيع الولايات، فقد أعيد (العادل) إلى (مصر)، بناءً على طلبه، ولكن ليس مطلق السلطة، وإنما كمدبر لأمر ابن (صلاح الدين): (العزيز عثمان). وقد تقبّل (تقي الدين) هذا القرار قبولاً سيئاً، إلى حدّ أنه هدد بالمضي غرباً، مصطحباً معه قسماً كبيراً من قوات (مصر). لكنه رضخ أخيراً لأمر (صلاح الدين)، للمثول أمامه في (دمشق)، وأعيدت توليته على ممتلكاته السابقة في الشمال، مضافاً إليها (ميافارقين)، في (ديار بكر). أما (حلب)، فأصبحت من حصة (الملك الظاهر غازي)[٢١٩].

علاقات (صلاح الدين) مع المدن الإيطالية والبيزنطيين:

إن أي تقييم لدور (صلاح الدين)، لا بُدّ أن يعطي المحل الأول لجهوده لبناء سلطته المادية، التي بنى فيها قوته التي أصبحت على أهبة الانطلاق صوب الفرنجة، بزخم متراكم، لكن كانت هناك

---

[٢١٨] يورد ابن خلكان في كتابه: وفيات الأعيان (الترجمة رقم ٨٥٦، م١٢، طبعة دي سلان، م٤، ٥١١ (وكذلك مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، قسم المؤرخين الشرقيين، م٣، ص٤١١ R.H.C.Or:.,) قصة مفادها أن أحد قادة صلاح الدين، قد خامره، بعد إبلاله من مرضه، أنه قد اقطع إخوته الإقطاعات الكبيرة، تاركاً أولاده مكشوفين عسكرياً.

[٢١٩] عماد الدين (أبو شامة، م٢، ٦٩-٧٠، بهاء الدين، ٦٤-٦٥. على أي حال إن تقي الدين بعد أن استدعى قواته من مصر لتلتحق به، أرسل مملوكه (يوزبا)، مع كتيبة من الفرسان، للانضمام إلى قراقوش في المغرب.

مجموعة من النشاطات الأخرى أقل بروزاً، نفذت في الوقت نفسِه، وللغاية نفسِها.

استخدام (صلاح الدين) الدبلوماسية، لعزل الفرنجة في (بلاد الشام)، وضمان أكبر قَدْر ممكن من علاقات سلام، إن لم تكن علاقات صداقة، مع كل خصم خارجي محتمل، قبل أن يشرع بحملته الحاسمة، هو أمر لم يتم منحه ما يستحق من تقدير. واتخذت هذه الدبلوماسية جبهتين:

لقد كان المسلمون في (بلاد الشام) و(مصر)، مُدركين تماماً للمكانة الكبيرة التي تحتلها المصالح التجارية للجمهوريات الإيطالية، في بقاء الدول اللاتينية، والخصومات بين كل من (بيزا) و(جنوة) و(البندقية). وقد جهد (صلاح الدين)، منذ توليه الحكم، لجذب تجارتهم صوب (مصر)، هذه التجارة التي ستؤدي، على ضوء سيطرته على (البحر الأحمر)، إلى تحقيق مكاسب مزدوجة، تتمثل في زيادة موارده، من جهة، واضمحلال مكانة التجارة الشامية، من جهة أُخرى. وأقدم المعاهدات التي بين أيدينا، تلك التي عقدها مع (بيزا)، في عام ١١٧٣[٢٢٠]. وقد أتت أكلها في السنة التي تلتها، عندما مد التجار البيازنة، وغيرهم من التجار الأوربيين، يد العون إلى القوات المصرية، في مواجهة الغزو الصقلي لـ(الأسكندرية)[٢٢١]. وتؤكد الرسالة التي بعثها

---

٢٢٠ Heyd, Histoire du commerce du Levant ,I ,٣٨٧

٢٢١ Heyd ,I,٣٩٨, n.١

في الهامش نفسه هناك إشارة إلى تواريخ ثلاث رسائل أخرى وجهت إلى بيزا، من قبل صلاح الدين أو العادل، وتعود إلى الأعوام ١١٧٦/٥٧٢، ٥٧٤ /١١٧٩، ١١٨٠/٥٧٥.

(صلاح الدين) إلى (بغداد)، بهذه المناسبة، وجود معاهدات مع (جنوة) و(البندقية) كذلك: وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده... وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة[٢٢٢]. وبعد ذلك بثلاث سنوات، تطالعنا رسالة أخرى من (القاضي الفاضل) موجهة إلى (صلاح الدين)، يذكر فيها تواصل تدفق رسل الأمم المخالفة إلى (القاهرة)[٢٢٣]، ومما لا شك فيه أن هذه التجارة قد ساعدت بدرجة كبيرة في إعادة بناء الأسطول المصري.

لكن تبقى علاقات (صلاح الدين) الدبلوماسية مع البيزنطيين أكثر خدمة لأهدافه، فقد بقيت محاولاتهم لإقناع (اللاتين) في (بلاد الشام)، من أجل التعاون للقيام بهجمات مشتركة على (مصر)، تهديداً قائماً لأمنها. وفي الوقت نفسِه، كان من الصعب الوصول إلى اتفاق معهم، دون تأليب سلاجقة الروم ضده، فالكارثة التي تعرّض لها جيش الإمبراطور (مانويل)، في (مايركيفالون)، على يد (قلج أرسلان) السلجوقي، عام ١١٧٦، قد أنهت لبعض الوقت العداءات المباشرة بين الطرفين. وبوفاة (مانويل)، عام ١١٨٠، بادر خلفاؤه لفتح صفحة العلاقات الدبلوماسية مع (صلاح الدين)، التي تم تأكيدها بمعاهدة عام ١١٨١. وقد أدّت العداوة المتزايدة بين (الإغريق) و(اللاتين)،

---

[٢٢٢] أبو شامة، م١، ص٢٤٣، وتاريخ هذه الرسالة هو ١١٧٤ وليس ١١٨٢، كما ذكر هايد استناداً إلى أماري.

[٢٢٣] عماد الدين، البرق، م٣، الورقة ٥٠ ب رسالة مؤرخة في ذي الحجة ٥٧٣هـ(أيار – حزيران ١١٧٧)، وانظر كذلك بشأن السفارات بين صلاح الدين وفردريك بارباروسا:
Hartmann,Die Personlichkeit Saladin ...,Berlin,١٩٣٣,٥٩; ٥٥-٥٧

إلى تعزيز أهمية توطيد هذه العلاقات، التي وثقها (صلاح الدين) بينه وبين كل من (إسحاق أنجيلوس)، في (القسطنطينية)، و(إسحاق كومنين)، في (قبرص)[٢٢٤].

إن علاقات الصداقة هذه، مع عدو تقليديّ للإسلام، كانت مبرّرة من دون شك بنظر (صلاح الدين)، بواقعِ المكاسب المباشرة التي تحققها. وقد أتاحت له، من جانب آخر، وإن بصورة مؤقتة، أن يرضى أكثر، عندما أُعيد افتتاح الجامع العتيق في (القسطنطينية)، وتمّت فيه الخطبة باسم الخليفة العباسي[٢٢٥].

(صلاح الدين) والجهاد الشامل ضد الصليبيين:

كان كلُّ شيءٍ قد انتظم وأعدّ مع نهاية عام ١١٨٦، إلاّ أن (صلاح الدين) كان ما يزال مُلتزماً بشروط معاهدة ١١٨٥، وكان عليه أن ينتظر حتى يحصل على ذريعة لإعلان الحرب. وآتته الفرصة المرجوة عندما نشب نزاع بين (ريموند) صاحب (طرابلس)، والملك

---

[٢٢٤] قارن C. Cahen ,Syria du nord ,٤٢٢-٥ ; Rohericht, Geschichte des Korrigreichs Jerusalem,١١٠٠-١٢٩١, Innsbruck,١٨٩٨,٤٩٣-٤
تعد الرواية التي يقدّمها مصدر لاتيني لشروط الاتفاق بين صلاح الدين واندرونيكوس كومنين مشكوك بامرها، وغير معقولة في تفاصيلها Grousset,II,٧٥١ ,note

[٢٢٥] بهاء الدين، طبعة شولتس، ص١٢٩-٣٠، طبعة القاهرة، ص١١٥-١٦)، وكذلك عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص١٥٩ نهاية الصفحة). ومن المحتمل أن ذلك لم يسبق أن جرى القيام به منذ بداية الحروب الصليبية.

(كي). وبسبب من ارتباطه بالتحالف مع (ريموند)[٢٢٦]، أرسل فعلاً بعض الدعم لـ(حامية طبرية)[٢٢٧]. وبالنتيجة، فقد انصرفت نية (كي)، أول الأمر، وتحت إلحاح رئيس الداوية، إلى مهاجمة (طبرية)، الأمر الذي أوقد نار الحرب. وفي مقتبل عام ١١٨٧، ارتكب (رينو)، صاحب (الكرك)، خطأه القاتل، عندما هاجم قافلة من الحجاج المسلمين، خارقاً بذلك تعهداته السابقة، ورفض أن يعيد الغنائم، سواء تحت تهديدات (صلاح الدين)، أو التماسات الملك (كي). عندها أقسم (صلاح الدين) على الاقتصاص منه، فأصدر أوامر يستدعي فيه كل نوابه وولاته، وخرج هو على رأس حرسه، في ١٤ آذار، لحماية قافلة الحجيج في طريق العودة من (مكة).

والتحقت به القوات المصرية، بعد بعض التأخير، وشاركته في اجتياح وتخريب أراضي (الكرك) و(الشوبك)، وعادت معه إلى (دمشق)، بعد ذلك بشهرين. وفي الوقت نفسهِ تحشدت قوات

---

[٢٢٦] عماد الدين، الفتح، ص١٧-١٨، أبو شامة، م٢، ص٧٤. يقدم ابن الأثير (م١١، ص٣٤٧-٨) إعادة تركيب لهذه الفقرة، مضيفاً إليها نصاً ليس له ما يسوّغه، فحواه أن صلاح الدين قد وعده أن يجعله ملكاً على كل الفرنجة في المستقبل. أمّا عماد الدين فيكتفي بالقول إن ريموند حث السلطان على مهاجمتهم، أملاً أن يستعيد المملكة.

[٢٢٧] Ernol,p١٤٢,١٥٢

افترض عماد الدين الوضع نفسَه (الفتح، ص١٨، م٢، ص٨-١٩)، وعند المقارنة مع ارنول يتضح مبلغ الدقة التي تميّز بها عماد الدين في عرضه لحقائق الوضع.

(دمشق)، و(حلب)، و(الجزيرة)، و(الموصل)، و(ديار بكر)، عند رأس الماء، وشنت غارة على أراضي (طبرية).[٢٢٨]

(معركة حطين) وتحرير المدن الفلسطينية:

وعند (صفورية)، ونتيجة تجاهل أوامر (ريموند)، اصطدمت جماعةٌ من الداوية والاسبتارية، في ١ أيار، بقوة إسلاميّة ضخمة، كانت تقوم بغارة تظاهرية، وكان أن قتل أو أسر أغلب الصليبيين، ولم يكد ينجو منهم أحد[٢٢٩].

وفي نهاية شهر أيار، قام (صلاح الدين) باستعراض جميع قواته، في (عشترا)، عند (حوران). وكان تعداد فرق الفرسان نحو ١٢ ألف فارس، ويقابلها ربما عدد مماثل من القوات الإضافية، وغير النظامية[٢٣٠]، "وعين لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة، وقال: "إذا

---

[٢٢٨] ترك صلاح الدين ابنه الأفضل في رأس الماء لتحشيد القوات الواصلة. وكان قائد قوات حلب: دلدرم الياروقي، وتولّى كوكبري قيادة قوات الجزيرة والموصل ودياربكر، وقايماز النجمي قيادة قوات دمشق. عماد الدين (أبو شامة، م٢، ص٧٥-٦).

[٢٢٩] تبدو الرواية الحيّة والمباشرة التي قدّمها أرنول ص١٤٤-١٤٨ جديرة بالثقة، ويعززها في الخطوط العامة نص عماد الدين في الفتح، ص١٤. وبما أن الأخير قد أشار إلى وجود القادة الثلاثة، المشار إليهم في الهامش السابق، يُصبح تقدير أرنولد لأعداد المسلمين في الاشتباك بـ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ فارس صحيحاً. وقد أضاف أرنول أن المسلمين لم يتركوا حصار طبرية إلى ما بعد الاجتماع الذي عقده باليان مع ريموند عقب الصدامErnol, p.١٥٢

[٢٣٠] على ضوء الأرقام التي وردتنا، من خلال الإشارات المتناثرة بين ثنايا المصادر، فإن توزيع الفرق المختلفة يمكن أن يقدّر بـ

١٠٠٠ مقاتل	حرس صلاح الدين
٤٠٠٠ مقاتل	قوات مصر

دخلنا بلد العدو، فهذه هيئة عساكرنا، وصورة مواردنا، ومصادرنا، ومواضع أطلابنا"[٢٣١].

وفي يوم الجمعة ٢٦ حزيران، زحف باتجاه (فلسطين). وبعد أن عسكر لمدة خمسة أيام في (الأقحوانة)، في النهاية الجنوبية للبحيرة، زحف باتجاه التلال المشرفة على (طبرية). وعندما أصبح الجيشان قبالة بعضهما، قاد (صلاح الدين) - سواء بمحض الصدفة، أو بناءً على تخطيط مسبق- حرسه وآلات الحصار إلى (طبرية)، في يوم الثلاثاء ٢ تموز. وصمدت الكونتيسة، صاحبة القلعة، في وجه الهجمات التي شنتها قواته، لكن التماسها النجدة من الملك (كي)، أتاح لـ(صلاح الدين) الفرصة، التي كانت عصية عليه طوال تلك السنوات، أن يقف وجهاً لوجه أمام قوات المملكة الصليبية[٢٣٢].

١٠٠٠ مقاتل	قوات دمشق
١٠٠٠ مقاتل	قوات حلب
٥٠٠٠ مقاتل	عساكر الجزيرة والموصل وديار بكر

ولا توجد أي إشارة في المصادر العربية إلى أعداد القوات الإضافية، والمشاة، والعساكر غير النظامية، إلا أن وجودهم في معركة حطين تأكد، خصوصاً بدلالة قول عماد الدين بأن الأعشاب قد أشعل النار فيها "بعض مطوعة المجاهدين".

[٢٣١] عماد الدين، الفتح، ص١٩.

[٢٣٢] من المعروف من خلال رواية أرنول (١٢٥-٦٢) أن ريموند شخصياً كان معارضاً لعملية التقدم، وأن (كي) قد أعطى الإشارة للتقدّم بناءً على إلحاح سيد الداوية، أمّا عماد الدين فيقدم في تصويره الملحمي - وبالتأكيد بناءً على ما تخيّل أنه دار في المعسكر الصليبي- ريموند بوصفه من دعا إلى الزحف، وبالنتيجة نراه عكس بذلك الآية (عماد الدين، الفتح، ص٢٢: ولما سمع القومص بفتح طبرية... قال لهم: لا قعود بعد اليوم، ولا بد لنا من رقم القوم، فإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهب الطراف والتلاد. ومن جانب آخر، فإن روايته بشأن طريقة تلقي صلاح الدين لهذه الأخبار، يجب أن تحل المحل الأول، حيث قال: "وسر حين أحاط بمسيرهم علمه، وقال قد حصل لنا المطلوب".

وسرعان ما تجلّت الطبيعة الكاسحة للنصر في (حطين) (٤ تموز)[٢٣٣]، من خلال سلسلة المدن والقلاع التي سقطت، سواء بيد (صلاح الدين)، مثل: عكا[٢٣٤]، تبنين، صيدا[٢٣٥]، بيروت[٢٣٦]، أو بيدِ القوات التي فرقها بإمرة قادته، مثل: (الناصرة، قيسارية، نابلس). وتخلّى عن محاصرة (صور) لبعض الوقت[٢٣٧]، لينظم إلى قوات

أما ابن الأثير (م١١، ص٣٥٢) فيضع – وفق طريقته المعتادة في ابتكار الحوارات الخيالية بين الشخصيات – يده على رأي ريموند الحقيقي، على الأقل في القسم الأول من الحادث.

[٢٣٣] لا يمكن إضافة إلاّ القليل عن وصف روريخت للمعركة (Geschichte,٤٣١-٤٤١)، أو ما قدّمه لين بول (Saladin,٢٠٨-٢١٥)، أما كروسيه (Grousset,II,٧٩١-٧٩٩) فاقل موضوعية. ويضيف ميخائيل السرياني رواية خيالية، مفادها أن صلاح الدين بعد أن قتل رينو و٣٠٠ من الداوية "استحم في دمائهم". ويضيف عماد الدين الأصفهاني في كتابه "الفتح" تفصيلين: أن صلاح الدين قد اقتاد رينو أسيراً، لكنه سلمه إلى أتباعه ليقتلوه، وأن هناك نصاً عن ذبح ١٠٠ من الداوية والاسبتارية (عماد الدين، الفتح، ٢٩).

[٢٣٤] تم الاستيلاء على عكا في يوم الخميس ٩ تموز، وقد أعطيت لابن صلاح الدين الأكبر: الملك الأفضل، الذي ولد في ٥٦٥/١١٧٠-١١٧١ (أبو شامة، م١، ص٢٧٦)، وبعد مغادرة سكانها، تم تقسيم منازلهم وأموالهم على الجند.

[٢٣٥] تم الاستيلاء عليها يوم الأربعاء ٢١ جمادى الأول (٢٩ تموز) عماد الدين، الفتح، ص٣٧.

[٢٣٦] تم الاستيلاء عليها يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأول (٥ آب) بعد أسبوع من الحصار، عماد الفتح، ص٣٨. وأن كلاً من صيدا وبيروت قد أقطعتا للأمير الكوردي: علي المشطوب، الفتح، ص٧٣.

[٢٣٧] يقدّم أرنول (١٧٩-١٨٣) رواية حول دخول صلاح الدين في مفاوضات مع أهل صور من أجل تسليم المدينة إليه، واستعدادهم للقيام بذلك، لكن وصول كونراد المفاجئ أنقذ المدينة، وتبع ذلك حصار قصير من قبل صلاح الدين لها في طريقه إلى عسقلان. وأن قصة وصول كونراد إلى عكا، ونجاح خطته في الهرب منها مشهورة جداً، وقد أتى عماد الدين (الفتح، ص٤٣) على ذكرها بصورة قريبة مما هو معروف. لكن هذا المؤرخ نفسُه يؤكّد أن صلاح الدين لم يسعَ إلى مهاجمة صور في هذه المرحلة، الفتح، ص٤٤، بقوله:

(العادل) (الذي كان قد استولى على يافا)، وحاصروا (عسقلان)، التي استسلمت في ٥ أيلول، بناءً على وعده بإطلاق سراح الملك (كي)، وسيد (الداوية)، وهو وعد نفذه بحذافيره. أما القلاع المتبقية في هذا الإقليم، فقد تم الاستيلاء عليها، سواء أثناء الزحف إلى (عسقلان)، أو بعد ذلك مباشرة.

تحرير القدس الشريف:

وأخيراً، أعاد (صلاح الدين) تحشيد جيوشه، وتقدّم صوب مبتغى أمله، وطموحه: (القدس). وبعد حصار لم يدم أكثر من أسبوعين، استسلمت المدينة في ٢ تشرين الأول، بشروط، أكدت – إذا كانت ثمة حاجة لذلك – سمعة (صلاح الدين) بالكرم والرحمة التي لا حدَّ لها [٢٣٨].

"فالهى عن طلبها طلب ما هو أشرف... البيت المقدس". وقال أيضاً: "وجاء إلى صور ناظراً إليها، وعابراً عليها، غير مكترث بها". أما بهاء الدين (شولتنس، ص٧٢، القاهرة، ص٦٥) فيعزو عدم الاشتغال بحصارها: لأن العسكر كان قد تفرّق في الساحل، وذهب كل إنسان ليأخذ لنفسه شيئاً. ولم يكن عماد الدين، ولا بهاء الدين، شاهدين على ذلك، فعماد الدين كان قد غادر إلى دمشق بسبب مرض ألَمَّ به. أما قول أرنول بأن صلاح الدين، بعد فشله في الاستيلاء على صور، قد استولى على قيسارية، فخاطئ، لأن قوات حلب سبق أن استولت على المدينة بقيادة دلدرم الياروقي وغرس الدين قلج (عماد الدين، الفتح، ص٣٣).

[٢٣٨] ثانية أرنول هو (٢١١–٢٣٥) شاهدنا الرئيس. وما أورده من تفاصيل أصبحت مألوفة بدرجة كبيرة، بحكم تواتر ذكرها في المؤلفات المعتمدة. ويحدّد عماد الدين (الفتح، ص٥٦) مبلغ الجزية الذي جناه صلاح الدين بنحو ١٠٠ ألف دينار، لكنه لم يُخفِ الإشارة إلى نقص ذمة الموكلين بجمعها من الشاميين والمصريين.

وقد حدا (صلاح الدين) الأمل، على إثر انهيار المملكة الصليبية، أن يستولي على (صور)، قبل أن يحلَّ موسم الشتاء، ففرض الحصار على المدينة في ١٣ تشرين الثاني، إلاّ أن الدفاع المستميت الذي أبداه (كونراد)، أدّى إلى ضيق صدر القوات الشرقيّة، التي كانت متلهفة للعودة إلى أوطانها مع ما تحمله من غنائم، لاسيّما وأن الشتاء قد بات على الأبواب. وجاءت الخسارة الكارثية التي تعرّض لها الأسطول المصري، الذي يحاصر المدينة، لتزيد من حجم معارضتهم. ومع ما ساقه (صلاح الدين) من حُجج لمواصلة الحصار، ودعم قادة الفرق الحلبية له[٢٣٩]، فإن الأُمراء اقتادوا جيوشهم ومضوا. وكان (تقي الدين)، وجيوش الموصل وسنجار وديار بكر، في مقدمة من غادر، "وكل طير منهم مشتاق إلى وكر، وما عرفوا أن الراحة القليلة تعقبهم تعباً كثيرا"[٢٤٠].

---

[٢٣٩] عماد الدين، الفتح، ٨٨.

[٢٤٠] عماد الدين، الفتح، ص٩٠. مما لا شك أنه استناداً إلى أي معايير نقدية تاريخية فهذا نصٌّ صحيح، إذ كتب من قبل شخص على صلة وثيقة بالأحداث، ودعم بالأسماء والتفاصيل الدقيقة. وما ذكره متسق تماماً مع الأشخاص موضوع الحديث. لذلك لا نعرف السبب الذي جعل عدداً كبيراً من المؤرخين (باستثناء روهريخت في كتابه: تاريخ الحروب الصليبية، ص٤٧٠) يتجاهلونه، لمصلحة رواية ابن الأثير غير الأصيلة والمتحيّزة (م١١، ص٤٦٨)، الذي يختلق متعمداً روايات عن تخلّي صلاح الدين عن محاصرة صور وانسحاب أُمرائه، ليضع الحوادث في صورةٍ مضللة، للدفاع عن قادة الموصل، وإلقاء اللوم على كاهل صلاح الدين. ولا تعد معالجة ابن الأثير السابقة أنموذجاً فريداً على منهجه بإعادة صياغة روايات مصادره، كما رأينا في تعليقاتنا السابقة. وهناك مثال أكثر جلاء في تناوله لموضوع استبدال حامية عكا ١١٩٠ (م١٢، ص٣٥-٣٦)، فرواياته بمجملها منقولة عن عماد الدين (الفتح، ص٣١٢-٣١٤) الذي انتقد فعلاً قرار الاستبدال، وإن كان نسبه إلى دوافع الإشفاق، لكنه عاد ليتحدّث عن جهد صلاح الدين في الضغط على قادته وموظفيه لبذل أقصى ما يستطيعون. أما ابن

وفي الأول من شهر كانون الثاني، وجد (صلاح الدين) نفسه مجبراً على التخلِّي عن الحصار، والالتجاء إلى (عكا)، لقضاء فصل الشتاء، حيث تدفقت إليه وفود المهنئين من أُمراء المسلمين، بضمنهم خصومه القدامى في أذربيجان وشمال إيران[٢٤١].

الحملة على شمال الشام ٥٨٤هـ/١١٨٨م:

وعندما حلَّ الربيع، ترك (صلاح الدين) (عكا) بعهدة مملوكه الأمين (بهاء الدين قراقوش) ليقوم بتحصينها وعاد إلى (دمشق)، ثم عسكر لبعض الوقت أمام (حصن كوكب)، الذي لم يحرّر بعد. وفي العاشر من آذار، زحف شمالاً مع حرسه، للانضمام إلى الفرق الجزرية، تحت قيادة (كوكبري)، و(عماد الدين) صاحب (سنجار)، في حين بقي (العادل)، والقوات المصرية، لحماية المنطقة الجنوبية، ولمعالجة

الأثير فاتَّهمَ صلاح الدين بالتواكُل وترك الأمر لقادته. ونجد أن ميشو لا يكتفي بنقل رواية ابن الأثير وإنما يعقب عليها قائلاً: "وهو الإهمال المعتاد لدى السلطان".

Michaud, Bibliotheque des croisades ,Paris,١٨٢٠,etc.,IV,٢٨٤

[٢٤١] عماد الدين، الفتح، ص٩٤، ١١٩-١٢٠. وفي هذه السنة تولّى ابن المقدم إمارة الحج الشامي، ويبدو أنه قد طالب أمير الحج العراقي ببعض المطالب، بوصفه ممثلاً عن صلاح الدين، خلال الوقوف بعرفة، وذلك في شباط ١١٨٨، فنشب شجار بين الجماعتين، نتج عنه عددٌ من الضحايا، من بينهم ابن المقدم نفسه. وقد نعته كلاً من عماد الدين (الفتح، ص١٠١، وروايته الأكثر تفصيلاً في البرق، والتي أوردها أبو شامة (م٢، ص١٢٣) وابن الأثير (م١١، ص٣٧٠-٣٧١) بالشهيد، بل إن نصّ ابن الأثير أكثر عنفاً من عماد الدين في إنحائه باللائمة على العراقيين، وأميرهم طاشكتين، مع أن الأخير أضاف بأنه أعرض عن ذكر حادثة ابن المقدم، التي وردت ضمن الاحتجاجات التي تقدّم بها ديوان الخلافة ضد صلاح الدين (أبو شامة، م٢، ١٢٢)، ومن بينها احتجاج غاضب على مفارقة صلاح الدين الحزم والأدب، لاتخاذه لقب (الناصر)، الذي استأثر به الخليفة.

حصني (الكرك) و(الشوبك)[٢٤٢]. وأمرت قوات حلب وحماة للمرابطة عند (تيزين)، للتصدّي لأي تعرّض من قبل (بوهيمند)[٢٤٣]. وكان ما تبقى من قوات أضال كثيراً من أن تتمكّن من القيام بعمليات حصار طويلة، لكنها كانت كافية للاستيلاء على المدن والقلاع المعزولة لإمارة (أنطاكية)، باتجاه أقصى الشمال في (بغراس)، و(دربساك). ومع أن (أنطاكية) نفسها لم تكن عُرضة لخطرٍ حقيقي، إلاّ أن (بوهيمند) التمسَ في شهر آب هدنة لمدة ثمانية أشهر، ولم ينالها إلاّ بصعوبة. وبعد ذلك عادت القوات الجزرية إلى مواطنها، وقفل (صلاح الدين) راجعاً إلى (دمشق). والتحق فيها به (العادل)، وفي الحال بوشر بحصار القلعتين المتبقيتين في فلسطين: (صفد) و(كوكب)[٢٤٤].

وعندما استسلمت القلعة الأخيرة، في الخامس من كانون الثاني، فرّق (صلاح الدين) ما تبقى من قواته، وقام بجولة تفقدية للمعاقل الساحلية، من (عسقلان)، وحتى (عكا)[٢٤٥].

---

[٢٤٢] عماد الدين، الفتح، ص١٦١، لا يحدّد تاريخاً لاستسلام الكرك، لكنها سقطت قبل عودة العادل إلى دمشق، لأن صلاح الدين أقطعه إيّاها عوضاً عن عسقلان (بهاء الدين، طبعة شولتنس، ص٨٩ = طبعة القاهرة، ص٧٩). أما الشوبك، فلم تستسلم إلاّ في ربيع ١١٨٩ (أبو شامة، م٢، ص١٣٩).

[٢٤٣] بهاء الدين (طبعة شولتنس، ص٧٨ ، طبعة القاهرة، ص٦٩-٧٠)، وابتداءً من هذا التاريخ دخل بهاء الدين خدمة صلاح الدين، وأصبح شاهد عيان من الدرجة الأولى على ما يورده من حوادث. وبالنسبة للمظاهر العامة والخاصة لحملة صلاح الدين الشمالية في عام ١١٨٨ انظر: C. Cahen, La Syria du nord ,٤٢٨-٤٣٠

[٢٤٤] يذكر عماد الدين أن أياً من الأمراء لم يرغب بإقطاع حصن كوكب، وأنها أعطيت إلى قايماز النجمي، قائد عسكر دمشق، وكان زاهداً فيها.

[٢٤٥] عماد الدين، الفتح، ص١٦٨.

إن النجاح الملفت للنظر لـ(صلاح الدين) في تقليص ممتلكات الصليبيين إلى ثلاث مدن، هي: (صور)، و(طرابلس)، و(أنطاكية)، وقلعة أو اثنتين من القلاع النائية، المحكوم عليها بالسقوط، في وقت قصير لا يتجاوز الثمانية عشر شهراً، قد دفع المؤرخين المسلمين، والغربيين، على السواء، إلى النظر إليه - في المقام الأول - بوصفه قائداً عسكرياً ناجحاً، وأن انتصاراته مبعثها المزايا العسكرية ذاتها، التي يتحلّى بها غيره من القادة العسكريين العظام والناجحين. لكن ذلك هو سوء فهم تام، فصحيح أن (صلاح الدين) قد امتلك فضائل عسكرية شخصية من الطراز الأول، إلا أن انتصاراته مبعثها امتلاكه لخصائص خلقية لا تكاد تتوافر لقائد عسكري عظيم. لقد كان رجلاً ملهماً بمثال سامٍ، لم يتزحزح عنه، فرض عليه تحقيقه أن يخوض سلسلة طويلة من النشاطات العسكرية.

وحتى عام ١١٨٦ كانت نشاطاته موجهة لفرض إرادته على النظام العسكري الإقطاعي القائم، وإعادة صياغته بالطريقة التي تحقّق له الهدف الذي يبتغيه. وقد أظهرت الصفحات السابقة أن الجانب العسكري كان ثانوياً في فكره، وإلى حدٍّ كبير في ممارساته، لتحقيق مهمة توحيد القوات العسكرية لغرب آسيا، سعياً خلف هدف واحد، صاغه وفق تصميمه الثابت، وتفرد نظرته. وبهذه الوسيلة، وليس بفعل قابلياته الاستراتيجية المتفوقة، استطاع حشد هذا الجيش، الذي تمكن من تدمير (مملكة القدس) الصليبية. وحتى عملياته العسكرية المدهشة في ١١٨٧ و١١٨٨، لا تقدم دليلاً على كون (صلاح

الدين) ذا مزايا عسكرية متفردة. إن الانتصار في (حطين) مبعثه أخطاء الفرنج، أكثر منه استراتيجيته، حتى مع إعطائنا كل التقدير للمهارة التي نجح فيها (صلاح الدين) في اغتنام الفرصة التي تجلّت أمامه. وأن التعثر اللاحق لعمليات الدفاع عن (القدس) و(أنطاكية)، يظهر الضعف الجوهري للدويلات الصليبية، أكثر منه العبقرية العسكرية للفاتحين. وهذه النقطة تؤكدها حقيقة أن معظم تلك القلاع قد سقط على أيدي قوات عسكرية صغيرة.

علاوة على ذلك، إن هذه النجاحات مبعثها، بالدرجة الأساس، تحليه بصفات تميزهُ تماماً عن بني عصره من القادة العسكريين. وليس ثمة أبلغ إشارة من نداءاته المتواصلة لقادته بالتحلِّي بمبادئ الشرف، والإيمان العميق، والتزامه الديني الثابت. وإذا كان للمدن والقلاع الصليبية أن تستسلم بتلك السرعة، فذلك بالأساس نابع من شهرته بالالتزام الصارم بوعوده، ولكرمه الذي لا حدَّ له. ومن يحلو له أن ينتقده، وينحو باللائمة على سماحهِ لتلك الأعدادِ الكبيرةِ من الفرسان، والتجار، الصليبيين، بالالتجاء إلى (صور)، ومن ثم بناء رأس جسر هناك لشنِّ الهجوم المضاد، فَاتَهُمْ أن يَلْحظُوا ما سيكون عليه مجرى الحملة الصليبية الثالثة، فيما لو وجدتْ (صلاح الدين) – عند وصولها – ما يزالُ منشغلاً في مهمّةِ الاستيلاء على القِلاع الداخلية، الواحدة بعد الأُخرى، دون أن تتاح له حرية تامّة للحركة، وتأمين كامل لمؤخرة جيشه[٢٤٦]. أما عدم استيلائه على (صور)، فهو من جانب

---

[٢٤٦] قارن الملاحظات الحكيمة لستيفنسن في كتابه:

نتيجة مصادفة وصول (كونراد)، وبسبب ضيق صدر القوات الشرقيّة، وتذمُّرها[٢٤٧].

ويوضح السبب الثاني، بحدّة، العيوب الثابتة في القوات التي كان عليها أن تخوض، في المرحلة التالية، الصراع مع الصليبيين. لكن ذلك كان في علم الغيب، ومن غير المقبول تاريخياً أن نتخيّل (صلاح الدين) وهو يعد الخطط، ويهيئ قواته، لمجابهة الهجوم القادم من الغرب. لقد كانت خططه، منذ البداية، تتركّز على الحرب الهجومية، لا الدفاعية، ولأجل هذا الغرض كان بناء جيشه. وقد نجح، بالدرجة الأساس، في تحقيق هذا الهدف، وبصورةٍ بارعة. ومهما كان حزنه، عندما شعر بالحاجة إلى قوة ثابتة من ولاته أمام (صور) ١١٨٧، وأمام (أنطاكيا) في العام التالي، فإنه لم يرَ في ذلك إلا إخفاقات مؤقتة، وإنه كان واثقاً من أنه سيعد لها العدة في الحملات القادمة.

حصار (عكا) والحملة الصليبية الثالثة:

وكانت أول الإشارات، بشأن الغزو القادم، قد وصلته عن طريق قبطان صقلي قرب (اللاذقية)، في خريف عام ١١٨٨[٢٤٨]. لكنه لم يبال بذلك إلاّ قليلاً، بدليل أنه منح (بوهيمند) هدنة تنتهي في أيار عام ١١٨٩، وشغل نفسه طوال الشتاء بالاستعدادات لمهاجمة (أنطاكية)

The Crusaders in the East ,Cambridge ,١٩٢٦ ,٢٥٥-٢٥٦

[٢٤٧] ص٤٨، هامش٤.

[٢٤٨] عماد الدين، الفتح، ص١٤٣ (أبو شامة، م٢، ص١٢٨-٩).

و(طرابلس)[٢٤٩]. فعلى الأرجح أنه قد فوجئ عندما وصلت طلائع القوات الأوروبية، ونجاح قوات (كي) بالزحف إلى (عكا)، ومحاصرة المدينة.

ومنذ هذه اللحظة تحوّل دوره، وأصبح الآن بمواجهة مهمّة جديدة، تتّسمُ بالضراوة والقسوة، لم يواجهها قائد عسكري مسلم منذ قرون، ألا وهي إبقاء الجيش في ساحة المعركة لثلاث سنوات، في ظروف كلها محبطة. ولو كان مجرد قائد لجيش، لما نجح في هذه المهمة، فإن قواته الإقطاعية كانت ستتخلّى عنه تاركة الميدان للفرنجة، ولكن في ظل هذا الوضع، غير المتوقع، تجلّت عظمة (صلاح الدين). وجرى اختبار القوة الداخلية للآلة التي أنشأها. كان عليه أن يخوض صراعاً مزدوجاً: الأول الصراع الخارجي ضد الصليبيين، والثاني الصراع الداخلي ضد الميول الانشقاقية، وعدم انتظام قواته الإقطاعية. ولم يكن للعبقرية العسكرية إلاّ القليل، في جميع تلك المزايا، التي قاتل بها الصليبيين، حتى قادهم إلى طريق مسدود. وكانت الحملة الطويلة عبارة عن سلسلة، لم تكد تنقطع، من الانتكاسات والكوارث. وجهر القادة بنقدهم له، وقواته باتت على وشك التمرد. لكن، وبالاستناد

---

٢٤٩ ويتضح ذلك من الرسالة التي وجهها صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين في الجزيرة العربية (أبو شامة، م٢، ص١٣٦-٧)، وفيها يتحدّث عن إمكانية توجه الصليبيين إلى مصر وبلاد الشام، لذلك يرى من الضرورة إبقاء القوات المصرية داخل مصر، وأنه يطلب من سيف الإسلام أن يأتي إلى بلاد الشام، ويستولي على فلسطين، وأن يدافع عمّا حققه المسلمون هناك من فتوحات. في حين ينشغل صلاح الدين نفسه بحصار أنطاكية، ويتولّى تقي الدين محاصرة طرابلس. وإن الإشارات المختلفة للحملات المستقبلية ضد الفرنج، التي نجدها في المصادر العربية (وخصوصا ابن الأثير)، هي بالتأكيد قد كتبت بعد هذا الحادث.

إلى القوة المطلقة التي تمتعت بها شخصيته، من جذوة الإيمان الملتهبة في داخله، والمثال الذي قدمه من التحمّل الصامد، كلُّ ذلك هو ما أوحى بالمقاومة العنيدة، التي ردت في النهاية الغزاة على أعقابهم.

في اللحظة التي بدأت فيها عمليات الحملة الصليبية الثالثة، مع مسير (كي) صوب (عكا)، كان (صلاح الدين) يحاصر (قلعة شقيف أرنون) منتظراً استسلامها المرتقب من قبل (رينو)، صاحب (صيدا).. وقد أرسلت القوات الشامية شمالاً لمجابهة (أنطاكية)، وإلى جانب حرسه الشخصي من الكورد والمماليك وقوات دمشق، لم يكن بمعيته سوى قوات أمير آمد الأرتقي، وعدد من جنود المشاة والمتطوعة للجهاد. وفي تموز قام بحملة استطلاعية صوب مدينة (صور)، (حيث تعرّضت بعض قواته الإضافيّة لخسارة فادحة، في هجوم غير مصرّح به على الجسر) وعززت دفاعات (عكا). ومع ذلك لم يفعل شيئاً حتى وصلته فعلاً أخبار مسيرة (كي)، فاستدعى القطعات العسكرية الأقرب إليه، وترك قوة صغيرة لحصار (الشقيف)، وزحف جنوباً إلى (عكا). وكانت خطته الخاصة، هي اختيار طريق مختصر عبر المناطق الداخلية، لقطع الطريق على القوات الصليبية، وإعاقة زحفها، لكن قادته أصرّوا على سلوك طريق التفافي أطول

وأسهل عبر (طبريا)، وإنه اضطر للإذعان "فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة"[٢٥٠].

وقبل أن يكتمل الحصار، كان (صلاح الدين) قادراً على تعزيز الحامية، ولكنه وهو يقوم بذلك، صير قواته أضعف من أن تكون قادرة على مهاجمة المحاصرين، حتى موعد وصول الفرق القادمة من الشرق، تليها قوات (تقي الدين) و(كوكبوري)، مما مكنه من وضع خط طويل للمعركة، قاعدته عند (تل كيسان)[٢٥١]. وخلال الاشتباك الرئيس الأول في ١٦ سبتمبر، نجحت القوات التي في الميمنة بقيادة (تقي الدين)، في شق طريقها صوب (عكا). ولكن أعقب نجاحها نقاش، تكرّر مرة وأُخرى خلال هذه الحملة. ومفاد النقاش فيما إذا كان من المفترض الاندفاع بجرأة لاستغلال هذا النصر، والمضي في الهجوم، لتحقيق أهدافه ضد "هذا السور الذي لا ينقطع" من مشاة الفرنجة!. على الرغم من مناشدات (صلاح الدين)، كانت كل طبائع

---

[٢٥٠] ابن الأثير، م١٢، ص٢١، وهو تلخيص لعماد الدين، الفتح، ص١٨٨، وقارن مع بهاء الدين، طبعة شولتنس، ص١١٤، طبعة القاهرة، ص١٠١ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون، م٣، ص١٥٢).

[٢٥١] عماد الدين، الفتح، ١٨٨٠١٨٩، ابن شداد، طبعة شلوتنس، ص٩٩– طبعة القاهرة، ص٩٢–٩٣ (ليس هناك ذكر لوصول القوات الشرقية) طبعة شلوتنس، ص١٠٤، طبعة القاهرة، ص٩٢–٩٣: في الميمنة الأفضل (ومعه قوات دمشق؟)، ويليه قوات حلب والموصل وديار بكر ونابلس، ويقف تقي الدين عمر في أقصى الجناح. أما على اليسار فحرس صلاح الدين، وغيرهم من الكورد، تليهم قوات سنجار، ومماليك صلاح الدين من الأتراك، والمماليك الأسدية على الجناح. ويقود القلب صلاح الدين نفسه، والفقيه الكوردي عيسى الهكاري. وقد ترك الجيش المصري ليحمي مصر، فيما لو حاول الصليبيون الزحف جنوباً صوبها. وهكذا، فإن المجموع الكلي للقوات النظامية يبلغ قرابة ١٠ آلاف، فضلاً عن عدد غير محدّد من المشاة والمطوعة وأتباع المعسكر.

القوات النظامية وتقاليدها على الضدِّ من هكذا تكتيكات. فهم كانوا من الخيالة، يشعرون بوجودهم في الميدان المفتوح فقط، حيث المجال واسع للمناورة؛ يواجههم انخفاض بطيء في الروح المعنوية للعدو، ودفاعات مادية، من خلال عمليات الحصار، أو حتى الاحتفاظ بضغط ثابت ضد جيش متحصن، سرعان ما استبدَّ بهم الإحباط، وانتقل بسهولة إلى الاستياء. لا بُدّ من تأمين الطعام والمياه للمقاتلين والخيول، كانت المعارك تتوقّف عند الغسق، وتنسحب القوة الرئيسة إلى مسافة آمنة، حيث يمكن التخفيف من الدروع، تحت حماية قوات الحرس المتقدّم(اليزك). كان هناك حماس متأجّج للجهاد، بين صفوف حرس (صلاح الدين)، ولكن الغالبية، ولا سيّما الفرق الشرقية كانت تفتقد إلى مثل تلك الدوافع، تريد أن تتولى الرياح، والطقس، والمجاعة، والجروح، الدور في التنكيل بالعدو؛ وفي الوقت نفسه، ليبذل (صلاح الدين) كل ما في وسعه لتعزيز جيوشه وأساطيله، ثم يتم بعدها سحق الأعداء[٢٥٢].

وكان هناك شعور بالثقة التامة بنتائج الحملة. مع ذلك، يرسل (القاضي الفاضل) إلى (صلاح الدين) من (مصر)، يعلمه أن بشارات النصر قد حررت[٢٥٣]. بعد دحر الهجوم الصليبي في ٢٢ أيلول، نقل

---

[٢٥٢] صور عماد الدين الأصفهاني هذا النقاش، ومواقف الأطراف، بالتفصيل في كتابه الفتح، ص١٩٠-١٩٣، وورد بشكل أكثر اختصاراً من قبل بهاء الدين، ص١٠٠-١٠١.

[٢٥٣] أبو شامة، م٢، ص١٤٤.

(صلاح الدين) قواته إلى (تل العياضية)، التي تواجه مركز قواتهم في (تل المُصلّحة).

وجاء المصاف الأعظم في ٤ تشرين الأول، ليكون هزيمة كاسحة للصليبيين. وإذا كان القادة المسلمون قد اتفقوا، هذه المرة على الأقل، لاستثمار النصر، إلا أنهم - حسب قول عماد الدين - "تفقدوا العسكر، فإذا هو قد غاب". فعندما أخذت الخيالة الكوردية، المتمركزة بالقلب، بالتقهقر، أمام الصدمة الصليبية الأولى، في حالة من الهلع، اعتقد القائمون بأن الجيش كله قد انكسر، فحملوا الميرة والأثقال، وكل ما هو موجود في المعسكر. فاندفع إثر ذلك الغلمان إليها، وبدأوا بنهب كل شيء. وعندما عادت القوات المهاجمة، وجدت أن كل حاجاتها قد نهبت، فبدأت بعملية بحث، واقتضى الأمر عدة أيام، لإعادة جمعها، وإرجاع ما سرق من الممتلكات إلى أصحابها[٢٥٤].

إلا أن الفرصة قد ضاعت، وعندما عاد المسلمون لمناقشة الأمر بعد أسبوع من الزمن، طغى الرأي القائل بالتأخر، فانسحب (صلاح الدين)، بفعل الحالة المرضية التي تحكمت به، مع قدوم الشتاء إلى موقع الخروبة، في ١٦ تشرين الأول. أما الفرنجة، فقد رسخوا أنفسهم في مواضعهم[٢٥٥]. وسرحت قوات ولاة (صلاح الدين)،

---

[٢٥٤] عماد الدين، الفتح، ص٢٠٦-٢٠٨، بهاء الدين، شولتنس، ١٠٧-١٠٨، القاهرة، ص٩٦.

[٢٥٥] عماد الدين، الفتح، ص٢٠٩- ٢١٢، أما ستانلي لين بول فيلخص رواية بهاء الدين (شولتنس، ص١٠٩، القاهرة، ٩٧.

الشامية، والشرقية، مع أوامر بأن تعود ثانية في الربيع. أما حرسه الشخصي، من الكورد، والمماليك، فقد بقي في مواضعه، مضافاً إليه فرقة (تقي الدين). واستبدلت الفرق المسرّحة، بالفرقة المصرية، تحت قيادة (العادل)، ودعيت فرق المشاة من (دمشق)، وغيرها من المدن الشامية، لمهاجمة مشاة الصليبيين[٢٥٦].

كان (صلاح الدين)، حتى ذلك الوقت، يزجي الأماني أن تنال الدعوة للجهاد ضد الصليبيين دعم بقية أمراء الإسلام. فقد كان سيلُ الرسائل والخطابات ينطلق من معسكره إلى كل الأصقاع، مقارناً في استغراب بين حماس الكفار، وقلة اكتراث المؤمنين. وآماله هذه لم ينعشها فقط قادة الوحدات الشرقية (خدمة لأهدافهم الخاصة)، وإنما الخليفة نفسه، الذي وعد بتقديم المساعدة، مقابل التنازل له عن (شهرزور)[٢٥٧].

وكان أقصى ما يأمله مساعدة أسطول (الموحدين)، لاعتراض طريق الصليبيين الجدُد، وهم متجهون صوب (بلاد الشام). إلا أن السلطان الموحدي (أبو يوسف يعقوب)، الذي كان له شكاواه القديمة تجاه

Lane–Poole ,Saladin ,٢٦٥–٢٥٦

[٢٥٦] عماد الدين، الفتح، ص٢١٩،٢١٤ ، ٢٢١.

[٢٥٧] عماد الدين، الفتح، ص٢٠٥،٢١٠،٢١٨. وكما يشير عماد الدين (ص٢١٩) فإن شاه بكتمر، أقوى جيران صلاح الدين، لم يكتفِ بعدم إبداء أي استعداد لمساعدة صلاح الدين، وإنما تبنى موقفاً معادياً تجاهه، وببساطة لعل سبب ذلك هو تحالفه مع الخليفة. أما بالنسبة للخلافة، فقد كانت كل قواها متجهة للاستيلاء على تكريت وغيرها من المدن شمالاً (ابن الأثير، م١٢، ص٣٨،٢) ويبدو من خلال رسالة للقاضي الفاضل أن الخليفة قد طلب فعلاً مساعدة صلاح الدين للاستيلاء عليها (أبو شامة، م٢، ص١٧٨)، وحسب إشارة عماد الدين نرى أنه كان يمانع عملية تسليمه شهرزور.

(تقي الدين)، صم أذنيه عن نداء (صلاح الدين) هذا، وما تواتر بعده من نداءات[٢٥٨].

وخلال أشهر الشتاء، تعاظمت مشاعر القلق لدى (صلاح الدين)، نتيجة التقارير التي وصلته من (القسطنطينية) و(قونية)، بشأن زحف الحملة الصليبية الألمانية. وعندما بلغته الأخبار في شهر تشرين الأول، بوصول هذه الحملة إلى (القسطنطينية)، قام بإرسال (القاضي بهاء الدين) إلى ولاته الشرقيين في (سنجار)، و(الموصل)، و(أربل)، من أجل أن يضعوا قواتهم على أهبة الاستعداد، ويتجه منها إلى (بغداد)، التماساً للحصُول على الإمدادات[٢٥٩]. وفي الوقت نفسهِ، قام الأسطول المصري بإعادة تموين (عكا)، وتقوية حاميتها بـ ١٠ آلاف رجل وبحار، لدعم دفاعاتها[٢٦٠].

إلا أن الدفاع عن بلاد الشام لم يثر إلاّ القليل من اهتمام الأمراء، ممن هم خارج هيمنة (صلاح الدين)، فنجد أن السلطان السلجوقي (طغرل)، الذي أطاحت به ثورة خارج خراسان، يتوجّه في هذا الوقت إلى (صلاح الدين)، طالباً مساعدته عسكرياً للعودة إلى ممتلكاته[٢٦١].

---

٢٥٨ أبو شامة، م٢، ص١٧١-١٧٣، القلقشندي، م٤، ص٥٢٦، وانظر:
Gaudefroy-Demombynes in Melaneges Rene Basset, Vol. II, Paris ,١٩٢٥,٢٧٩sqq.

٢٥٩ بهاء الدين، طبعة شولتنس، ص١١٠، طبعة القاهرة، ص٩٧-٩٨.

٢٦٠ عماد الدين، الفتح، ٢٢٤،٢٢٧.

٢٦١ عماد الدين، الفتح، ص٢٣٤-٢٣٥. أرسل صلاح الدين مبعوثاً إلى همدان للتوسط بين المتخاصمين، وفي الوقت نفسه جدّد طلبه بالعون من قزل أرسلان في همدان.

وجاءت عودة الأسطول الصليبي في مقتبل ربيع عام ١١٩٠، لتقطع السبل أمام (عكا) مرّة أُخرى، وأخذت الفرق الشامية تلتحق بـ(صلاح الدين) في شهر نيسان، فضلاً عن فرق الخيالة الخفيفة من التركمان والعرب. فاتجهت القوات الإسلامية إلى (تل كيسان)، في ٢٥ من الشهر نفسه[٢٦٢]. وخلال شهري أيار وحزيران وصلت القوات الشرقية من (حران)، و(جزيرة ابن عمر)، و(الموصل)، لتعقبها قوات (أربل)، في تموز. وعلى إثر معركة بحرية، نجح أسطول جديد في شقّ طريقه إلى (عكا)، محملاً بالمؤن والإمدادات، وذلك في ١٤ تموز[٢٦٣].

وكانت، على أي حال، قد ترامت إلى سمع (صلاح الدين)، في شهر حزيران، الأخبار بأن الحملة الألمانية قد وصلت مشارف (كيليكية). وكما يبدو أن (صلاح الدين) كان يعلّل النفسَ بأن يتمكّن (قلج أرسلان) من النجاح في مقاومتهم، فلم يعد هناك من مناص أمام هذا التهديد الوشيك، إلا أن يقلص قواته المتواجدة أمام (عكا). فأرسل في ١٣ تموز كل الفرق الشامية والتركمان، من أجل اعتراض تقدّم هذه الحملة[٢٦٤]. ويبدو أن قناعته بنجاح هذه القوات بالوقوف

---

[٢٦٢] عماد الدين، الفتح، ص٢٤٠.

[٢٦٣] عماد الدين، الفتح، ٢٤٤-٢٤٥، ٢٥٣-٢٥٤، ٢٥٦.

[٢٦٤] عماد الدين، الفتح، ص٢٦٤، بهاء الدين، طبعة شولتنس ١٢٣، طبعة القاهرة، ١٠٩-١١٠. هناك إشارة في رواية عماد الدين، مفادها أن صلاح الدين كان يعتزم التوجه شمالاً بكل جيشه، لكن عندما اتخذ قرار البقاء في عكا، أصرّ الأمراء الشاميون المحليون على التحرّك لحماية أراضيهم، هم وسكانها المرتعبون.

في وجه جيوش (فريدريك) الضخمة، كانت ضئيلة، بدليل لجوئه في الوقت نفسهِ إلى خطة دفاعية يائسة في (فلسطين)، تمثلت بتدمير دفاعات (طبرية)، و(يافا)، و(أرسوف)، و(قيصرية)، و(صيدا)، و(جبيل)[٢٦٥]. وفي الوقت نفسهِ، توقّفت العمليات العسكرية في (عكا) لبعض الوقت، نتيجة انتشار الأمراض، والتي بدا أنها كانت أشد وطأة في الجانب الصليبي[٢٦٦].

أجبر (صلاح الدين)، نتيجة خوفه من انتشار الأمراض، بفعل تفسخ آلاف الجثث، إثر معركة المشاة في ٢٥ تموز[٢٦٧]، وبفعل وصول (هنري شمبانيا) بعد ذلك بيومين، إلى الانسحاب بقواته الرئيسة إلى (الخروبة)، في ١ آب، تاركاً قوة متقدّمة في (تل العياضية)[٢٦٨].

ومما زاد الطين بلة، أن (صلاح الدين) أصبح في حاجة ماسّة إلى المال، فالنفقات المتواصلة على هذه الحملة الطويلة الأمد، فضلاً عن النزف المتواصل في الأسلحة والغذاء والتجهيزات، وأجور القوات الإضافية، كلها نفقات عجزت خزائن ولاياته عن تغطيتها. وأحد الأسباب الرئيسة التي دفعت (صلاح الدين) للتمسّك بقوة بـ(عكا)،

---

[٢٦٥] عماد الدين، الفتح، ص٢٦٤. وقد انتقد القاضي الفاضل هذا الإجراء، في خطاب أورده أبو شامة، م٢، ١٧٦.

[٢٦٦] عماد الدين، الفتح، ص٢٦٥.

[٢٦٧] عماد الدين، الفتح، ص٢٧٢ -٢٧٣، وهو يقدر الخسائر بنحو تسعة آلاف إلى عشرة آلاف. أما ابن شداد فيقدم تقديراً مشابهاً، مستنداً إلى دليل ظرفي، بهاء الدين، شولتس، ص١٢٥-١٢٨، القاهرة، ص١١١-١١٤.

[٢٦٨] عماد الدين، الفتح، ص٢٧٩-٢٨٠.

أنه قد جعل فيها ترسانته العسكرية، إذ كان قد نقل إليها القسم الأكبر من مخازن (مصر) و(بلاد الشام)[٢٦٩]. وكانت (مصر) هي مصدر تمويل حملات عام ١١٨٧و١١٨٨، لكن نائبه، وناصحه الأمين: (القاضي الفاضل)، واصل تنبيهه إلى أن هذا المصدر لا يمكن أن يستمرّ إلى ما لا نهاية، ولا سيّما وأن الحياة الاقتصادية لمصر قد تعرّضت إلى ضربة قاسية، نتيجة توقّف التجارة مع المدن الإيطالية، وشُحّة الذهب[٢٧٠]. ولم تكن هذه الصعوبات وحدها هي مصدر اضطراب (صلاح الدين)، فتواصل متطلبات أصحاب الإقطاعات في (بلاد الشام)، قد أخذت تخلق حالة من الاستياء العنيف، الذي بدأ يتطوّر إلى فوضى بين صفوف سكان ولاياتها[٢٧١]. فمماليكه، وقواته التي مكثت في الميدان، كانت تواصل الاقتراض، من أجل تمويل احتياجاتها من المؤن والأعلاف، إلى درجة وصلت فيها إلى حافة الاستنزاف. ولم تفلح جهود (صلاح الدين) للتخفيف من هذه

---

[٢٦٩] بهاء الدين، شولتس، ص١٧٤، القاهرة ١٥٦ (للأسف أساء ميشو تفسيرها بصورة مزعجة، بقوله: "نقل إليها نخبة مقاتليه" انظر :٣١٣, Bibliotheque,IV

[٢٧٠] رسائل من القاضي الفاضل أوردها أبو شامة، م٢، ص١٧٤،١٦٦-١٧٨. ومن هنا جاء امتنان صلاح الدين على الهدايا التي تلقاها من بغداد، وهي النفط والرماح والسهام، واعتذاره بالمقابل عن قبول قرض بقيمة ٢٠ ألف دينار (عماد الدين، الفتح، ص٢٤٢ -٢٤٣)، وقارن أبو شامة، م٢، ص١٥٢.

[٢٧١] عن التعسف الذي أظهره أصحاب الإقطاعيات في منطقة دمشق، القاضي الفاضل (أبو شامة، م٢، ص٢٠٣)، وفي نابلس: المصدر نفسه، م٢، ص٢٠٧ (عماد الدين، الفتح، ٤٤٣).

المصاعب، من مصادره الخاصة[٢٧٢]، لذا بدا هذا الموضوع يتخذ طابعاً متواصلاً من التشدّد في مناقشاتهم معه[٢٧٣].

إن نجاح (حامية عكا) في صدِّ الهجمات المتواصلة للصليبيين، وتدفق الهاربين من المعسكر الصليبي، بعد أن نال منهم الجوع والأمراض[٢٧٤]، قد حافظ على الروح المعنوية للجيش الإسلامي لبعض الوقت، لكن الأخبار التي جاء بها الفارون حول قرب وصول مَلِكَيْ فرنسا وإنكلترا، والخطط للقيام بهجوم عام، أجبر (صلاح الدين) على الانسحاب إلى (شفرعم) في ٢١ تشرين، على الرغم من عودة القوات الشامية قبل ذلك بأيام قليلة[٢٧٥]. وهناك قول نسَبَهُ (بهاء الدين) إلى (صلاح الدين) في ذلك الوقت، يشير إلى قدوم مبعوثين عن الصليبيين، لمناقشة شروط الصلح، لكن لا تسعفنا المصادر الأخرى بأيِّ إشارة إضافية[٢٧٦]. إن اعتلال صحة (صلاح الدين)، وإصرار

---

[٢٧٢] القاضي الفاضل (أبو شامة، م٢، ١٧٧ وسط الصفحة، ١٧٨)، قارن أيضاً: المصدر نفسه ١٦٢ نقلاً عن عماد الدين، البرق "وإنما يقيمون ببذل النفقة"، وفي ص٢٠٧ يذكر أن الأمير الكوردي أبو الهيجا قد أنفق من ماله ٥٠ ألف دينار في عام ١١٩٠.

[٢٧٣] بهاء الدين، شولتنس، ٢٠٠، ٢٢١ إلى آخره، قارن: رسالة عماد الدين إلى الديوان: عماد الدين، الفتح، ص٣٩٢-٣٩٣.

[٢٧٤] عماد الدين، الفتح، ص٢٢٩،٢٩٦-٣٠٠.

[٢٧٥] عماد الدين، الفتح، ص٢٩٤، ٢٩٦. ويعزو عماد الدين سبب الانسحاب إلى أن الأمراء، على ضوء الهجوم المتوقع من الصليبيين، أرادوا فسحة من الأرض للاصطدام مع الصليبيين. أما بهاء الدين، طبعة شولتنس، ص١٤٤، طبعة القاهرة ١٢٨، ١٢٩، فيعزو ذلك إلى التياث مزاج صلاح الدين من الحُمَّى التي عاودتهُ من جديد، والتي حالت دون مشاركته في المعركة الكبرى في رأس عين في ١٣و١٤ تشرين الثاني (عماد الدين، الفتح، ص٣٠٢-٣٠٣).

[٢٧٦] بهاء الدين، شولتنس، ص١٤٥، ١٧٤، القاهرة ١٢٩، ١٣١.

الأمراء الشرقيين على القفول إلى ديارهم، في شهر تشرين الثاني، أدّى إلى حالة من الكآبة لدى (صلاح الدين)، انعكست في سلسلة من رسائل التشجيع والمواساة التي بعثها له (القاضي الفاضل)[٢٧٧]، الذي التحق به شخصياً أمام (عكا)، في كانون الثاني[٢٧٨].

وفي الوقت نفسه، ولاستغلال انسحاب الأساطيل الصليبية، رتّب (صلاح الدين) تقديم العون لـ(حامية عكا)، التي تعرّضت لضغطٍ شديد. كان لا بُدّ للعملية أن يتم الاستعداد لها مقدماً، لكن يبدو أن الأمر تم بصورةٍ مرتجلة، وأن القرار قد اتخذ في اللحظة الأخيرة، لذلك اتسمت بالتأجيلات، وسلسلة متنوعة من العوائق. فسكان المدينة قد اندفعوا خارجها، أسوة بالحامية، ولم يكن ذلك قراراً صائباً، ففقدانهم لم يكن بالإمكان تعويضه. وإن القوات النظامية لم تكن، كما هو مفهوم، راغبة بالقيام بالعمليات الخطرة والفدائية، وإن التماس المتطوعة بين صفوف القوات الإضافية لم يحقق إلا نجاحاً محدوداً، كما أن العواصف قد نالت من السفن والرجال والمؤن. وكانت هناك صعوبات مالية. وقد اتهم (عماد الدين) موظفي الديوان بالعمالة للصليبيين، بحكم كون أغلبهم - كما يقول- من الأقباط، وهم يدعمون الفرنج سراً. لكن الاحتمال الأرجح أن يكون ذلك، على غرار كل الإجراءات البيروقراطية، فإن العقبات تمثلت بالعوائق الإدارية، لا بالنوايا السيئة، بغضِّ النظر عن التماسات (صلاح الدين)

---

[٢٧٧] مقتبسات في: أبو شامة، م٢، ص١٦٦-١٦٩.

[٢٧٨] عماد الدين، الفتح، ص٣١٨.

الملحة، بأن يضعوا جانباً القضايا المتعلّقة بالاعتبارات المالية في هذه الأزمة. وقبل أن تستكمل عملية استبدال الحامية، وتقويتها، عاد الأسطول الصليبي إلى الظهور من جديد، لذا، فإن الحامية التي كانت بقيادة القائد الكوردي الشجاع (المشطوب)، قد تقلصت فاعليتها إلى نحو ثلث الحامية التي سبقتها[٢٧٩].

ومع كل الانتقادات التي وجهت، فيما بعد، لعملية استبدال الحامية، فإنها استطاعت الصمود في مواجهة الجيش الصليبي بمجمله، حتى شهر تموز، ولم تكن هناك قوة بحوزة (صلاح الدين)، قادرة – وفق كل الحسابات البشرية– على إنقاذ المدينة من السقوط، في خضمّ هذه المرحلة من الأحداث. لكن بالنسبة لـ(صلاح الدين)، فإن أقسى خداع تعرّض له في هذه اللحظة الحرجة، قد نال منه نيلاً مادياً ومعنوياً شديداً، حينما جاءه من حيث لا يتوقع.

ففي تشرين الأول من عام ١١٩٠، توفي (زين الدين)، نائبه على (أربل). وكان المؤهل الأرجح لتولّي منصبه أخوه (كوكبوري)[٢٨٠]، الذي سلم (صلاح الدين)، بالمقابل، إقطاعاته الجزرية في (حران)، و(الرها)، و(سميساط)، والذي منحها بدوره إلى (تقي الدين)، ابن أخيه. وفي مقتبل شهر آذار، سمح لـ(تقي الدين) أن يغادر المعسكر

---

[٢٧٩] اغزر الروايات تفصيلاً يقدمها عماد الدين في الفتح، ص٣١٢-٣١٤، ويذيل عليها أبو شامة، م٢، ١٨١، نقلاً عن عماد الدين، البرق. وقارن كذلك بهاء الدين، شولتنس ١٥٤-١٥٥، القاهرة ١٣٨-١٤٠، وترد الرسالة أيضاً لدى عماد الدين، الفتح، ٣٦٦.

[٢٨٠] عماد الدين، الفتح، ص٢٩٨-٢٩٩ وكذلك عماد الدين، البرق (أبو شامة، م٢، ص٦٤، وإن كوكبوري قد تعهد بدفع مبلغ ٥٠ ألف دينار سنوياً مقابل الإقطاع.

الإسلامي، ومعه فرقة مماليكه البالغة ٧٠٠ مقاتل، لتنظيم الأمور في إقطاعياته الجديدة، لكن مع أوامر صارمة أن لا يعزل أي من ولاة (صلاح الدين)، أو يدخل في أي مجابهة عسكرية، والأهم: أن يعود على رأس القوة الكبيرة، التي أصبح عليه الآن – على ضوء الإقطاعات الجديدة– أن يجمعها[٢٨١]. لكن لم يكد (تقي الدين) يصل إلى (الجزيرة)، حتى قام بمهاجمة وطرد زعماء الـ(بوكوساك)، في (سيواويراك)، واستولى على (حاني)، وغصب إقطاعات تابعة لـ(ابن أرسلان شاه الأرتقي)، وهو من ولاة (صلاح الدين). ثم اصطدم بـ(شاه أرمن)، بكتمر، وهزمه، وحاصر (خلاط)، على (بحيرة وان)، لكنه فشل في الاستيلاء عليها، ثم اقتحم (أرمينيا)، ونهبها لعدة أشهر، واستولى على (ملازكرد)، حيث توفي في ١٠ تشرين الأول ١١٩١[٢٨٢].

إن استياء (صلاح الدين)، وشكواه من سلوك (تقي الدين) المتهور، وغير المنضبط، ضاعف منه ما تولّد عن ذلك من تداعيات مباشرة. فكلُّ ولاة منطقة (ديار بكر)، ونتيجة خوفهم على أملاكهم، قد قعدوا عن الانضمام إلى (صلاح الدين)، عند (عكا). وحتى (كوكبوري) بقي

---

[٢٨١] عماد الدين، الفتح، ص٣٢٢-٣٢٣، ٣٥٨، بهاء الدين، شولتنس، ص١٥٤، القاهرة، ص١٣٨. وقبل ذلك بمدّةٍ قصيرة، عاد الظاهر إلى حلب، وفي نيته محاصرة صافيثا. وقد ذكر ابن الأثير صراحة الـ٧٠٠ فارس، م١٢، ص٤٠-٤١.

[٢٨٢] عماد الدين، الفتح، ص٤٠١-٤٠٦، ميخائيل السرياني، م٣، ص٤٠٨-٤٠٩ الذي أشار إلى أنه يحمل لقب السلطان، وقارنه بجوليان الجاحد، الإمبراطور الروماني الذي اضطهد النصارى، ابن الأثير، م١٢، ص٤٠-٤١.

في (أربل)، منشغلاً بحساباته ومخططاته الخاصة. وفي الوقت نفسهِ وصلت رسالة شديدة اللهجة من دار الخلافة، تحتج على ما قام به (تقي الدين)، إلى حدٍّ لم يستطع (صلاح الدين) حيالها إلاّ أن يعلن البراءة من أفعال (تقي الدين)[٢٨٣]. وقد حمل (صلاح الدين) لاحقاً (تقي الدين) تبعات سقوط (عكا)، أكثر من أي شخص آخر[٢٨٤]. لكن هذه النتائج لم تقف عند هذا الحدّ، فقد بقيت تُلقي بظلالها على الأحداث، حتى نهاية صراعه مع (ريتشارد)، لا سيَّما وأن ما خلفه (تقي الدين) من آثار، اقتضت مغادرة كل من (الملك الظاهر) و(الملك العادل) لتسويتها، وبالتالي غيابهم عن الجيش في اللحظات الحرجة، خلال حملة (ريتشارد) باتجاه (القدس).

وهكذا فقد تقلّصت قوات (صلاح الدين)، خلال حملة عام ١١٩١، إلى: حرسه الخاص، والفرق الشامية، وقوات سنجار، وبعض الفرق المصرية، وقوات الموصل. وأغلبها وصلت في أواخر شهر حزيران[٢٨٥]. وفي ٤ حزيران تحرّك (صلاح الدين) إلى (تل العياضية).

---

[٢٨٣] عماد الدين، مقتبس لدى (أبو شامة، م٢، ١٨٣) بهاء الدين، شولتنس، ص٢١٣ = القاهرة، ص١٩١-١٩٣.

[٢٨٤] عماد الدين، الفتح، ص٣٥٨.

[٢٨٥] عماد الدين، الفتح، ص٣٤٣،٣٢٦-٣٤٤. انشغل قسم من جيش الموصل، بناءً على أوامر صلاح الدين، بمحاصرة جزيرة ابن عمر، من شهر نيسان إلى آب، وذلك لمعاقبة حاكمها الزنكي سنجرشاه، الذي غادر معسكر صلاح الدين أمام عكا في السنة الماضية دون موافقة صلاح الدين (ابن الأثير، ج١٢، ص٣٨-٤٠): قارن عماد الدين، الفتح، ص٢٩٨ -٢٩٩ وعماد الدين في البرق (أبو شامة، م٢، ص١٦٥). وقد وصلت قوات شيزر وحمص والتركمان بقيادة دلدرم الياروقي، التي

وعلى الرغم من حالة الهلع التي خلقها وصول (ريتشارد)[٢٨٦] إلا أن (صلاح الدين) واصل بانتظام هجماته التعرضية على خطوط الصليبيين الأمامية. وعندما فشل الهجوم الكبير في ٣ تموز، وعندما أظهرت الخيالة الإسلامية عجزها عن اختراق السور الحديدي من الدروع والأسلحة، الذي أقامه المشاةُ الصليبيون[٢٨٧]، أدرك بأن النهاية باتت قريبة، فاقترح على حامية المدينة القيام بهجوم واسع، والخروج من المدينة في ٤ تموز. وبقي الجيش شاكي السلاح طوال الليل، لدعم عملية الجلاء، إلاّ أن الخطة أسيء تطبيقها، نتيجة التأخير في المدينة، وتسربت أخبار ذلك إلى الصليبيين، عن طريق بعض الفارين إلى معسكرهم[٢٨٨]. ولم يتبق أمام (صلاح الدين) إلاّ ترتيب شروط تسليم المدينة، إلاّ أن الحامية استسلمت وفقاً لشروطها هي في ١٢ تموز.

(صلاح الدين) والزحف الصليبي على (القدس):

وعلى الرّغم من أن الاستيلاء على (عكا) كان نصراً كبيراً للصليبيين (سيّما من خلال الدور الذي لعبته المدينة في القرن القادم)، إلاّ أن ميزان القوى في هذا الصراع الطويل لم يتغير ضدّ (صلاح الدين)،

كان صلاح الدين قد جندها بين ٨ و ١٠ تموز. (عماد الدين، الفتح، ص٥٥٧) عندما كانت عكا على حافة التسليم.

٢٨٦ عماد الدين، الفتح، ص٣٣٦.

٢٨٧ عماد الدين، الفتح، ص٣٥٠-٣٥١: بهاء الدين، شولتنس، ص١٧٤، القاهرة، ص١٥٦-١٥٧.

٢٨٨ عماد الدين، البرق (أبو شامة، م٢، ص١٨٧)، عماد الدين، الفتح، ص٣٥٥.

فعلى ضوء غياب معلومات إحصائية دقيقة حول حجم الخسائر والإصابات بين كلا الطرفين، فمن الصعوبة أن نصل إلى خلاصات دقيقة حول ما انطوت عليه من خسائر عسكرية. فلربما أن المسلمين قد واسوا أنفسهم، بأن جعلوا خسائر الفرنجة بما لا يقل عن ٥٠ ألف مقاتل[٢٨٩]، ولكن حتى إذا كانت الإصابات في المعركة متقاربة، فإن ما حاق بالصليبيين نتيجة المجاعة والأوبئة، كان أعظم بكثير مما في صفوف المسلمين، ولربما كانت أشد من إصاباتهم في المعركة.

الأمر الأكثر أهمية، هو أن صمود (صلاح الدين)، ونجاحه في حجز الجيش الصليبي لقرابة عامين أمام (عكا)، قد أضعف بصورة مميتة زخمهم الهجومي الأولي، مما هيّأ الوقت لاتساع الانشقاقات النفسية فيما بينهم، ويتفرّق شملُهم، وهذا بالنهاية هو الذي أنقذ الوضع. علاوة على ذلك، إن الخسائر في الجانب الإسلامي كان بالإمكان تعويضها بسهولة أكبر، وإن حقيقة تدفق فرق عسكرية جديدة من (أوروبا)، قد توقّف قبل أن تبدأ مرحلة الحرب المتحرّكة، وقد ترك ذلك أثره البيّن على المعنويات في كلا المعسكرين.

من جانب آخر، إن الهزيمة أمام (عكا)، قد أضعفت كثيراً من سلطة (صلاح الدين) على قواته النظامية، وأضعفت بالنتيجة من قوتهم القتالية كجيش. إن فقدانهم الثقة بقيادتهم، أو بحظوظها، وامتعاضهم من هذه الحملة الطويلة والمكلفة، والتي لم تعد عليهم بأي ربح، خلا تفاقم الديون، ونقص الرجال والخيل، كلها كانت عوامل محبطة بدرجة

---

[٢٨٩] عماد الدين، الفتح، ص٣٦٠.

خطيرة. فقد رفضوا الدفاع عن أي حصن، لكيلا يواجهوا مصير (حامية عكا)، وبالمقابل أصبحوا - أيضاً- رافضين الدخول في مواجهة شاملة معهم في الأرض المكشوفة، وهكذا لم يتبق أمام (صلاح الدين) إلاّ اتباع تلك التكتيكات أمام (عكا)، أن يحتوي القوة الصليبية بأقصى ما يمتلكه من قدرة، على أمل إنهاكهم، معتمداً على بسالة دفاعهِ وصلابته.

وفي الوقت الذي كانت فيه المحادثات والمفاوضات قد وصلت إلى طريق مسدود، نتيجة فعل (ريتشارد) المروع، في ٢٠ آب، عندما ذبح الأسرى المسلمين[٢٩٠]، كان (صلاح الدين) نشطاً في استدعاء قواتٍ جديدة. وبعد هذه المذبحة، جدّد نداءاتهِ للأُمراء المسلمين، الذين صموا آذانهم عنها[٢٩١]، فقد أرسلت طلبات استدعاء عاجلة إلى ولاته الأراتقة، وإلى(كوكبري) في (أربل)[٢٩٢]، وأصدرت إلى مبعوثه إلى البلاط الموحدي أوامر بأن يعلم السلطان بأن الصراع مع الصليبيين قد يطول، وأن دعمه البحري الآن أكثر أهمية من أي وقتٍ

---

[٢٩٠] يحدّد كل من عماد الدين، الفتح، ص٣٧٣، وبهاء الدين، شولتنس، ص١٨٣، القاهرة ١٦٤-١٦٥) هذا التاريخ، أما بالنسبة للمفاوضات، فليس بالإمكان الإضافة إلى ما قدّمه ستيفنسن من مناقشات:

The Crusaders in the East,٢٦٩-٢٧٣.

ومن الجدير بالملاحظة أن لويس عندما غادر إلى صور، ونما إلى علم صلاح الدين نيته بالمغادرة، "فأنهض إليه السلطان وراءه رسولاً بتحف تليق به"، عماد الدين، الفتح، ص٣٧١.

[٢٩١] خطاب من العماد، ورد في البرق (نقله أبو شامة، م٢، ص١٩٠).

[٢٩٢] عماد الدين، الفتح، ص٣٧٤.

مضى[٢٩٣]. وعندما بدأ الزحف نزولاً باتجاه (القدس)، أرسل (القاضي الفاضل) إلى (دمشق) ليصدر التوجيهات إلى الإمدادات المتوقّعة[٢٩٤]، لكن (تقي الدين) كان ما يزال ماضياً في حملته في أعالي (الجزيرة)، لذا لم يسجل شيء عن قدوم هذه القوات.

وحالما عرف (صلاح الدين) بحقيقة وجهة (ريتشارد)، أرسل قوات استطلاع لاختيار مكان مناسب على الطريق الساحلي، يمكن أن يهاجم فيه الصليبيين أثناء زحفهم[٢٩٥].

ويتضح مزاج قواته السيء، في بداية العملية العسكرية، في امتناعهم عن دعم (الملك الأفضل)، عند مهاجمته لمؤخرة قوات (ريتشارد)، أثناء زحفها من (عكا) إلى (حيفا)[٢٩٦]. لكن مع تواصل تعقبهم للزحف الصليبي، بدأت الروح القتالية تنبعث فيهم من جديد. إن النمط الدفاعي غير المألوف، الذي كانت تتولاه وحدات مشاة منتظمة، ومنضبطة، أحبط تكتيكاتهم التقليدية. وإن محاولة تحطيمها، من خلال قوة اقتحامية، تقوم بهجوم شامل منظم، كما حدث في (أرسوف)، في ٧ أيلول، وحدها بإمكانها أن تفقدهم توازنهم، قبل أن يعود الهجوم المفاجيء المضاد، الذي قام به الفرسان. لقد وصفت هذه المعركة الشهيرة بأسلوب ملحمي، وبتفاصيل أسطورية، ضمن

---

٢٩٣ أبو شامة، م٢، ١٣٨ -١٣٩.

٢٩٤ عماد الدين، البرق (أبو شامة، م٢، ص١٩٠).

٢٩٥ عماد الدين، الفتح، ص٣٧٤.

٢٩٦ عماد الدين، الفتح، ص٣٧٦، بهاء الدين، شولتس، ص١٨٥، القاهرة، ص١٦٦. يقدمان روايتين مختلفتين.

كتاب (رحلة ريتشارد)[٢٩٧]. ومع بعض المبالغات، حتى عند (بهاء الدين) نفسه، الذي عاد بعد ذلك ليسجل بأن قوات (حلب) و(دمشق) و(الموصل)، قد ثبتت في مراكزها، في الوقت الذي لاذ فيه حرس (صلاح الدين) الشخصي ذاته بالفرار، أمام الهجوم الذي قامت به الخيالة الصليبية[٢٩٨]. ولقد كاد احتواء الضربة الساحقة الصليبية، من قبل (صلاح الدين)، ينقلب إلى نصر، ناهيك عن أن القوات الإسلامية بقيت سليمة بعد المعركة، لذا من الصعب دعم حجة (تشارلز أومان) بأن هذه المعركة هي التي "منحت الصليبيين كل الأراضي الساحلية في فلسطين الجنوبية"[٢٩٩].

---

٢٩٧ Itinerarium Peregrinarurm et gesta Regis Richardi (de. Stubbs) Rolls Series ,London ,١٨٦٤ ,IV ,.١٨-٢٢.

إن العنصر الأسطوري يظهر بصورة خاصة من خلال ربط الهجوم بتقي الدين عمر، الذي كان منشغلاً آنذاك بالاصطدام مع بكتمر في أرمينيا، وكذلك في خطب صلاح الدين و(سانسكونسيوس) صاحب حلب..

٢٩٨ بهاء الدين، شولتنس، ص١٩٦-١٩٧، القاهرة، ص١٧٥-١٧٧. قارن: عماد الدين، الفتح، ص٣٨٥. وهناك عبارة مثيرة للاستغراب في رسالة عماد الدين إلى الديوان الخليفي، التي تبدو كأنها نقد مبطن لصلاح الدين، هي:

وظنها السلطان هزيمة، وبانت بالعاقبة أنها كانت عزيمة. بهاء الدين، شولتنس، ص١٩٣-١٩٤ = القاهرة ١٧٣-١٧٤ يقول بأن السلطان كان يأمل أن تطول المفاوضات قبل أرسوف، حتى تصل الإمدادات التركمانية المتوقعة، إلا أن الحرارة التي أثارها الاصطدام أدّت إلى تحرّك مباشر من قبل الصليبيين، فأجبر صلاح الدين على أن يدفع قواته إلى المعركة دون إبطاء.

٢٩٩ Charles Oman ,A History of the Arts of War in the Middle Ages , ٢nd ed., London , ١٩٢٤ ,vol .I,٣١٨

أوقع توقف الفرنجة عند (يافا) (صلاح الدين) في حيرة، حيث لم يعد متيقناً من أنهم ينوون التوجّه إلى (القدس)، أو فيما إذا كانت مخاوفه الحية من إمكانية تحدرهم صوب (مصر) قد تحقّقت. وكانت نيتهُ الأولى أن يضع حامية قوية في (عسقلان)، ليقطع عليهم الطريق إلى (مصر)، لكنه عندما استشار أُمراءه، احتجوا بأن قوات المسلمين غير كافيه للدفاع عن كل من (عسقلان) و(القدس)، فكل منها قد تتطلّب ٢٠ ألف مقاتل، وأن الأمر متروك له أن يختار بين المدينتين، فيدافع عن واحدة، ويخرب أسوار الثانية. ولم يكن ممكناً رد هذه الحجّة، حتى لو كان مبعثها، في بعض الجوانب، الخوف من مصيرٍ كمصير (عكا)[٣٠٠]. ومع حزن (صلاح الدين) لذلك، إلا أنه حزم أمره على تدمير أسوار (عسقلان)، مُدركاً أن وقته ضيّق جداً، فغذّ السير إليها، ولم يغادرها حتى بلغت عملية تخريب الأسوار شوطاً متقدّماً، في ١٢-١٤ أيلول. وفي الوقتِ نفسهِ، كان (الملك العادل) يحرس الطرق خارج (يافا)، ومعه قوة صغيرة. وبعد ذلك ركب (صلاح الدين) إلى (القدس)، للنظر في تقوية تحصيناتها، فقام بتخريب (الرملة)، والحصون المجاورة لها. وفي الأول من تشرين انضمّ إلى بقية قواته الرابضة عند (الرملة)، والتي وضعت تحت تعبئة القتال[٣٠١].

---

[٣٠٠] عماد الدين، الفتح، ص٣٨٩، بهاء الدين، شولتنس، ص١٩٨-١٩٩، القاهرة، ص١٧٧-١٧٩، يتفق معه في الجوهر، لكنه أنزر تفصيلاً .

[٣٠١] عماد الدين، الفتح، ٣٩٠، ابن شداد، طبعة شولتنس، ص٢٠٢-٢٠٣، طبعة القاهرة، ١٨٢-١٨٣.

المفاوضات بين (صلاح الدين) والصليبيين، وتوقيع هدنة الرملة:

وكانت المفاوضات المعقّدة التي خاضها (صلاح الدين) مع (ريتشارد)، من جانب، ومع (كونراد)، من جانب آخر، أمر أملته أوضاع قواته المنهكة، وصعوبات الحصول على الطعام، والأعلاف، والتجهيزات[٣٠٢]. ويتضح من النصوص المفصّلة، التي قدّمها (بهاء الدين) أن (صلاح الدين)، وإن كان لا يثق بكلا الطرفين، إلا أنه كان يميل إلى قبول عرض (كونراد) للصلح، في قوله: "فإني لو حدث لي حادث الموت" –وهذا ما أخبر به (بهاء الدين)– "ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج، والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل"[٣٠٣].

إلا أن الصلح مع (ريتشارد) بدا أكثر قبولاً لدى قادة الجيش، لأن الصلح معناه تسريح الجيوش. لأجل ذلك فقد لاقى مشروع الزواج المزمع بين (جوانا) و(العادل) (الذي كان سيتولّى حكم كل فلسطين) ابتهاجاً عاماً في المعسكر[٣٠٤]. إلا أن اضطراب (ريتشارد)، جعله "كلما أبرم عهداً نقضه ونكثه"[٣٠٥] مما أفقد القادة صبرهم، ليمضي

---

[٣٠٢] بهاء الدين، شولتنس، ص٢٠٢–٢٠٣، القاهرة، ص١٨٠، وعلى وجه الخصوص المراسلات التي أوردها عماد الدين في الفتح، ص٣٩٢–٣٩٣.

[٣٠٣] بهاء الدين، شولتنس، ص ٢١٨، القاهرة، ص١٩٦–١٩٧.

[٣٠٤] عماد الدين، الفتح، ٣٩٤.

[٣٠٥] عماد الدين، الفتح، ص٣٩٨.

(صلاح الدين) في مساره، حيث أرسل بالفعل مبعوثاً إلى (صور)، للاتفاق على شروط الصلح، عشية اغتيال (كونراد) (٢٨ نيسان)، لتتضاعف المصاعب في وجه المسلمين[٣٠٦].

وفي الوقت نفسهِ، قام الصليبيّون بأول تقدّم لهم إلى (بيت نوبة)، على إثر انسحابهم من (الرملة)، وإعادة بناء (عسقلان) (٢١ كانون الثاني). وقد انصب جهد (صلاح الدين) الأساس على تقوية تحصينات (القدس). وعادت قوات (الموصل) و(سنجار) إلى مواطنها، واستبدلت في ٢٢ كانون الأول بفرقة مصرية[٣٠٧]، وكانت لديه، بالإضافة إلى ذلك، قواته المؤلفة من المماليك والكورد (ومن بينها: الفرقة الأسدية، التي عسكرت على مقربة من عسقلان)[٣٠٨]. فضلاً عن قوات دمشق، وقوات التركمان الإضافية، التي جاءت من (آسيا الصغرى)[٣٠٩].

وإذا كان (صلاح الدين) قد تجنّب الدخول في معركة فاصلة، فإنه قد لجأ إلى استخدام القوات الخفيفة، ومعها الخيالة العرب، لمهاجمة خطوط مواصلات الصليبيين، وقطع طرق تموينهم، وإشغال القسم الأكبر من جيشهم بالغارات السريعة.

---

[٣٠٦] بهاء الدين، شولتنس، ص ٢٣٩، القاهرة، ص١٩٦-١٩٧.

[٣٠٧] ابن الأثير، م١٢، ص٥٢، عماد الدين، الفتح، ص٣٩٩.

[٣٠٨] عماد الدين، الفتح، ص٤١٨.

[٣٠٩] بهاء الدين، شولتنس، ص٢١١، القاهرة، ص١٩٠.

وواجهته في تلك الأثناء مشكلة جديدة مع أقربائه، فابن (تقي الدين) الصغير: (ناصر الدين محمد)، قد طلب -إثر وفاة والده- تثبيته على إقطاعيات والده، إلاّ أن (صلاح الدين)، وبسبب عدم رغبته بوضع هذه السلطات الواسعة بأيدي شاب قليل التجربة، اشترط عليه عدة اشتراطات، مما أثار ثائرة هذا الأمير الشاب. عندها عهد (صلاح الدين) بالولايات في (الجزيرة)، إلى ابنه (الملك الأفضل)، الذي غادر في شباط ١١٩٢، ليهيئ قواته في (دمشق)، ويستعد بالتعاون مع أخيه (الملك الظاهر) في (حلب)، باسترجاعها من (ناصر الدين). فشعر الأخير بالخطر، فاستنجد بـ(العادل)، ليتشفع له عند (صلاح الدين)، وبالفعل، وبعد جولات من المفاوضات مع (ريتشارد)، في شهري آذار ونيسان، وافق (صلاح الدين) على استدعاء (الأفضل)، وسلم هذه الولايات إلى (العادل).[٣١٠]

وكانت العقبة التي اعترضت طريق المفاوضات مع الصليبيين، هي إصرار (صلاح الدين) على عدم احتفاظ الصليبيين بـ(عسقلان)[٣١١].
أمّا في الجوانب الأخرى، فإن الاتفاق كان يلوح في الأفق مع حلول شهر أيار، وإن (صلاح الدين)، ونتيجة توقعه وصول القوات الشرقية، سمح لـ(العادل) بمغادرة المعسكر لتفقد ممتلكاته الجديدة. وسرعان

---

[٣١٠] قد تكون أحد أسباب عملية الاستبدال هذه، هي ضمان السيطرة على زنكي الموصل، وكانت الترتيبات أن يترك ناصر الدين الجزيرة بعد عام من الزمن، ويتولّى إقطاع تقي الدين في حماة والمعرة. عماد الدين، الفتح، ص٤٢٨. أما العادل فكان له أن يحتفظ أيضاً بإقطاعه في الأردن: بهاء الدين، شولتنس، ص٢٢٧، القاهرة ص٢٢٤.

[٣١١] عماد الدين، الفتح، ص٤٢٢.

ما استأنف (ريتشارد) نشاطه الهجومي، مدفوعاً ربما بالنقص الشديد في الفعالية القتالية لدى قوات (صلاح الدين)، فحاصر (الداروم)، في ٢٣ أيار، وتقدّم باتجاه (القدس)، مع بداية شهر حزيران. وعاد (صلاح الدين) لتبنّي تكتيكاته، بمهاجمة خطوط إمدادته، محققاً نجاحاً لا يُستهان به[٣١٢]، لكنه ذاق من مرارة الكأس نفسها، عندما هاجم (ريتشارد) قافلة قادمة من (مصر)، ونهبها، وذلك في ٢٣ حزيران[٣١٣].

في الظروف الاعتيادية، لا تعدو خسارة قافلة، أكثر من مجرّد مخاطرة طبيعية من مخاطر الحرب، ولكن عندما يكون كل طرف قد بلغ أعلى درجات التوتر وخيبة الأمل، فإن حادثةً كهذه تُصبح بمثابة أزمة. إن ثقل هذه الحملة العسكرية، قد ناءت به - بالمقام الأول- قوات (صلاح الدين) الشخصية، من المماليك والكورد، ممن بقوا في ساحة المعركة لنحو أربع سنين، دون انقطاع. وكانت القافلة تحمل لهم ما يحتاجونه من مؤن وحيوانات وأسلحة، فضلاً عن التعزيزات العسكرية. أما الآن، فقد تفرّقت التعزيزات، وأصبحت الإمدادات المنتظرة بيد العدو، وتعمل على تقويته، فضلاً عن أن الكثيرين - دون شك - قد خسروا أموالهم الخاصة. لأربع سنين كان المثال الذي

---

٣١٢ بهاء الدين، شولتنس، ص٢٣٠،٢٢٩-٢٣١، القاهرة، ص٢٠٧-٢٠٨، عماد الدين، الفتح، ٤٢٤، قارن: Itinerarium,vol., IV,c.1. وصلت إمدادات جديدة من التركمان، بقيادة دلدرم الياروقي، في بداية حزيران، وفرقة صغيرة من كفر طاب، بهاء الدين، شولتنس، ص٢٢٩، القاهرة، ص٢٠٦.

٣١٣ ابن شداد، طبعة شولتنس، ٢٣١، ٢٠٨، ومابعدها، عماد الدين، الفتح، ٤٢٥.

قدّمه (صلاح الدين) في حماسه للجهاد، وعزمه الثابت على مواصلته، قد ألهمهم على الاستمرار في مواجهة الخسارة المتواصلة والتراجع، لكن الآن لم يعد أمامهم، بعد سنوات الصراع الطويلة والقاسية، إلا الخسائر المتواصلة، لا بل وحتى الكارثة. لذا، فإن الانتقاد والتذمر قد تحوّل إلى عصيان، فعندما قرّر (صلاح الدين) أن يدمر الآبار والعيون المحيطة، استعداداً للحصار، دعا قواته للمرّة الأخيرة، في اجتماع عقد في الأول من شهر تموز، كان (المشطوب الكوردي) هو الذي محضه ولاءه، أما مماليكه فقد جاهروا بانتقاده، ورفضوا الانصياع له[٣١٤].

ومما زاد الطين بلة، أن قوات (الموصل وسنجار وديار بكر)، التي وصلت فعلاً إلى (دمشق)، قد تأخّرت هناك[٣١٥]. وجاء انسحاب (ريتشارد)، وتجديد الحديث في التفاوض، ليهدئ الخواطر، ولكن لا ليقضي عليها. وكما حدث في المرّات السابقة، كانت (عسقلان) الصخرة التي تحطّمت عليها المفاوضات، في الوقت الذي كانت فيه القوات متلهفة لإبرام الصلح[٣١٦]. وكانت روح العصيان والخصومة مستترة، لكنها كانت تنتظرُ الفرصة لتتخذ شكلاً مفاجئاً من العنف. فجاءتها الفرصة بعد ذلك ببضعة أيام، فعندما نما إلى علم (صلاح الدين) أن (ريتشارد) يعتزم أن يهاجم (بيروت)، أرسل ولده (الأفضل)

---

٣١٤ بهاء الدين، شولتنس، ص٢٣٥-٢٣٦، القاهرة، ص٢١٢.

٣١٥ عماد الدين، الفتح، ص٤٢٨،٤٢٦.

٣١٦ ابن شداد، طبعة شولتنس، ص٢٣٩-٢٤٣، طبعة القاهرة، ٢٥١-٢١٩.

إلى (مرج عيون)، مع أوامر بأن يحشد هناك الجيوش الشرقية، التي كانت ما تزال في (دمشق)، ويراقب الوضع[٣١٧]، وتقدّم بقواته الشخصية باتجاه (يافا)، وبقتال عنيف تواصل لثلاثة أيام، أجبرها على الاستسلام، باستثناء القلعة، وذلك في ٣١ تموز. وكان ذلك أقصى مما بإمكان قواته أن تحتمله، فالحرارة، والرغبة بنهب المدينة – على الأقل – دفعت الكورد والتركمان لينقضوا على المدينة[٣١٨]، لكن مماليك (صلاح الدين) وقفوا على بوابات المدينة، وصادروا كل ما كان بأيدي الكورد، ومدوا إليهم أياديهم بالضرب[٣١٩].

إن هذا الوضع يفسّر تماماً المشاهد المثيرة للاستغراب، التي وقعت لاحقاً، عندما أدّت الفوضى التي كانت عليها القوات، إلى خلاص (قلعة يافا)، على يد (ريتشارد). ومرّة ثانية، بعد بضعة أيام، عندما حاول (صلاح الدين) أن يباغت (ريتشارد) في معسكره، وأمر قواته بالهجوم، كتيبة بعد كتيبة، ولكن بدون جدوى، وكان أخو (المشطوب)، عينه، هو الذي التفت إليه قائلاً: "قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا، وأخذوا منهم الغنيمة، يحملون"[٣٢٠].

وهكذا فإن أفضل أسلحة (صلاح الدين)، وأخلصها، انقلبت عليه أخيراً، ولكن بعد أن أنهى ما هو مطلوب منه. فحملة (ريتشارد)

---

[٣١٧] عماد الدين، الفتح، ص٤٢٨.

[٣١٨] بهاء الدين، شولتنس، ص٢٤٨، القاهرة ٢٢٢-٢٢٤، عماد الدين، الفتح، ص٤٢٩.

[٣١٩] ابن الأثير، م١٢، ص٥٥ (وهو ينقل عن البرق)، أشار ابن شداد لاحقاً إلى الحادثة، فلم يذكرها في وقتها، بهاء الدين، شولتنس، ص٢٥٤، القاهرة، ٢٢٩-٢٣٠.

[٣٢٠] ابن شداد، طبعة شولتنس، ص ٢٥٤، طبعة القاهرة، ٢٢٩.

الصليبية وصلت إلى طريق مسدود، وجاء وصول الإمدادات الشرقية، ليجبره على الرضوخ فيما يتعلّق بـ(عسقلان)، وإن (صلاح الدين) الذي استوعب ما جرى في (يافا)، كان متلهفاً لمواصلة الصراع[٣٢١]، إلاّ أن مناشدات قواته تغلّبت عليه، لذلك أبرمت الهدنة في الثاني من أيلول، لثلاث سنوات وثمانية أشهر. ومن المفارقة أنه في ذلك الوقت بالذات، حصل (صلاح الدين) دعماً غير متوقّع عن طريق موفدين: الأول من عدوّه القديم (شاه أرمن)، صاحب (خلاط)، الذي عرض عليه الولاء، وأن يضع قواته في خدمته. أما الثاني، فكان أمير (أرضروم)[٣٢٢]. لكن الحملة الصليبية قد أصبحت في حكم المنتهية، ولم يكد ينقضي أسبوعان، حتى أصبحت تلك الجيوش أثراً بعد عين.

وحاز الصليبيون الساحل، من (عكا) إلى (يافا)، باستثناء (عسقلان)، التي خربت تحصيناتها. ومضى (صلاح الدين) بنفسهِ إلى (القدس)، ثم استطلع أحوال القلاع، وعاد منها إلى (دمشق). وفي شباط خرج لاستقبال الحجيج عند عودتهم، وفي أحد الأماسي دهمته الحُمّى، وخابت كل الجهُود لوضع حدٌ لها. وفي يوم الأبعاء ٤ آذار ١١٩٣ لقيَ وجه ربه. وأحدُ الذين عرفوهُ، قال: "وما رأيتُ مَلِكاً حزن الناسُ بموتهِ سواه"[٣٢٣].

---

[٣٢١] عماد الدين، الفتح، ص٤٣٤، بهاء الدين، شولتنس، ص٢٦٢، القاهرة، ٢٢٩.

[٣٢٢] بهاء الدين، طبعة شولتنس، ص٢٥٤، طبعة القاهرة، ٢٢٩.

[٣٢٣]عبد اللطيف البغدادي من خلال كتاب ابن ابي أصيبعة، عيون الأنباء، منشور ضمن مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية / القسم الشرقي، م٣، ص٤٣٨.

تقـدّم أسـرة مجلـة (الحـوار) جزيـل شـكرها، ووافـر تقديرها إلى كل من أسهم في رفد هذا المطبوع مادياً أو معنوياً، وفي مقدمتهم فضيلة الدكتور (قيصر عبد الرحمن الحافظ)..



الأستاذ الدكتور ناصر عبد الرزاق الملا جاسم

* ماجستير: جامعة الموصل/ 1992، عن رسالته:

(صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الإنكليزية والأمريكية).

* دكتوراه : جامعة الموصل/ 1999عن أطروحته: (المستشرق هاملتون كب/ دراسة نقدية).

* أستاذ تاريخ الاستشراق والحروب الصليبية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل

* مدير وحدة الدراسات الاستشراقية / جامعة الموصل

* لديه كتابان منشوران:

الإسلام والغرب: قراءات في الاستشراق. عمان/ دار المناهج، 2004

المؤرخ صالح أحمد العلي. بيروت/ مركز دراسات الوحدة العربية، 2010

* نشر أكثر من ثلاثين بحثا في الدوريات الأكاديمية. ولديه عدد من الأبحاث المترجمة عن الإنكليزية، نشرت في الدوريات العربية.

مطبعة روژهلات/أربيل